

تيمورلنك ودولة المماليك العجراء

مُتّجّه مقال الكاتب اللاتيني دی میونانلای
عن حیاة تیمورلنك

تأليف

أبو العزم الكوفي سليمان

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٤٠٥ - ١٩٨٥ م

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع



تيمورلنك و دولته المماليك اجراسه

ترجمة مقال الكاتب اللاتيني دي ميجانالى
عن حياة تيمورلنك

تأليف

أشرف محمد التميمي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بالفيوم (جامعة القاهرة)

الطبعة الأولى

١٩٨٥ - ١٤٠٥ م

دار النهضة العربية

الطبع والنشر والتوزيع

الله
سبّل

محتويات الكتاب

الصفحة

القسم الأول

٤٨—١ تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة

مقدمة : ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

١٤—٩ (أ) تيمورلنك والمغول الجغطائيون :

— نشأته — استيلاؤه على السلطة في إقليم ما وراء
النهر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

١٦—١٤ (ب) امبراطورية تيمورلنك :

— اخضاع الدوليات المستقلة في غرب آسيا
دولتة الكرت — دولة السريداريين — الدولة
المظفرية — الدولة الجلائرية ٠ ٠ ٠ ٠

— استيلاء تيمورلنك على بغداد سنة ١٣٩٣/٥٧٩٥ م
وهو ب حاكمها السلطان أحمد بن أويس الجلايري
إلى مصر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

٢١—١٧ (ج) تيمورلنك والسلطان المأمورى الظاهر برررق

— هزيمة قوات تيمورلنك عند الفرات وعودة أحمد
بن أويس إلى بغداد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

— حملة تيمورلنك على بلاد الهند وزوال الخطمر
مؤقتا عن سلطنة المماليك ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

— 7 —

١١

٢٣٦

(د) تیمورلنك والسلطان الناصر فرج بن برقوق :

— الثورة ضد أحمد بن أبيين في بغداد و هروبها إلى
السلطان الشماني بايزيد ° ° ° ° °

— استيلاء تيمورلنك على حلب في ربيع الأول سنة
١٤٠٠ هـ / أكتوبر ٢٠٠٠ م

— الموقف السياسي والعسكري في مصر بعد استيلاء
تيمورلنك على حلب

- فشل الناصر فرج في مواجهة تيمورلنك في دمشق، وعودة الناصر فرج إلى مصر .

וְיַעֲשֵׂה

— استلاء تتمور لذك علم، دمشق وتخريجها

$$\{ \} = \{ \cdot \}$$

(د) خاتمة

SYST

(و) المصادر والمراجع

القسم الثاني

51

ترجمة مقال الكتاب اللاتيني دي میجاناللی

三

(١) المقدمة

33—V

٤) تحقيق النص

44—40

(ج) مصادر التحقيق

مقدمة

ظللت فكرة الغزو العسكري لبلاد الشام تراود قادة المغول منذ أن هزمت قواتهم على يد المماليك في عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م ومنذ أن أسس هولاكو دولة مغول فارس لم يتوقف أبناؤه - الایلخانيون - عن بذل المحاولات العديدة من أجل تحقيق تلك الفكرة ، وسعوا من أجل ذلك الى التحالف مع الغرب الصليبي للفيام بهجوم مشترك على أراضي سلطنة المماليك غير أن تلك الجهود باعت كلها بالفشل الذريع ، فمن ناحية لم يقدم الغرب الأوروبي سوى الوعود الكاذبة لأنها شك في قدرة المغول على تحقيق ما فشلت فيه القوى الصليبية طوال قرنين من الزمان ، ومن ناحية أخرى واجه المغول هزائم عديدة أشد قسوة على يد المماليك من معركة عين جالوت ، فقد أنزل بهم انظاهر بيروس الهزيمة عند البيرة سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٣ م ، وعند الابلستين سنة ٦٨٠هـ / ١٢٧٧ م ، كما ألحق بهم السلطان قلاوون الهزيمة عند حمص سنة ٦٨١هـ / ١٢٨١ م ، ثم كان انتصار السلطان محمد بن قلاوون الرائع على المغول في معركة مرج الصفر (شقحب) عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٣ م . وقد توفّف الخطر المغولي على بلاد الشام مؤقتاً بعد الصلح الذي عقده السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع أبي سعيد ايلخان فارس عام ٥٧٢هـ / ١٣٢١ م ، وتفكّ دولته مغول فارس بعد وفاة أبي سعيد عام ٥٧٣هـ / ١٣٣٥ م .

وتتجدد المخاطر المغولى مرة أخرى في نهاية القرن الثامن المجري / الرابع عشر الميلادي عندما ظهر زعيم ينتسب للمغول هو تيمور لنك تمكن من الاستيلاء على أقليم ما وراء النهر الذي كان جزءاً من دولة المغول الجغطائيين - احدى الدول التي انقسمت إليها امبراطورية جنكيز خان - ثم تمكن تيمور لنك من تأسيس امبراطورية كبيرة ونشر الخراب والدمار

- ٨ -

وسفك الدماء في كل أرض دخلها . كما هاجم بلاد الشام ودمّر مدنه الرئيسية لا سيما حلب ودمشق ، غير أن الظروف السياسية والعسكرية لم تتمكن تيمور لنك من البقاء في المدن الشامية فترة طويلة بسبب استعداداته العسكرية لمواجهة السلطان العثماني بازيد . وهكذا تمكن لماليك من استعادة بلاد الشام فور رحيل تيمور لنك .

ومع أن حملة تيمور لنك على بلاد الشام التي حدثت في عام ٨٠٣هـ / ١٤٠١م في فترة حكم السلطان الناصر فرج ٨٠١-٩٩٥هـ / ١٣٩٩-١٤١٢م جديرة بدراستها لاظهار طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين مصر ومختلف دول العالم آنذاك ، وأبرز نواحي الصعف والقوض في سياسة مصر في تلك الفترة ، إلا أن الدراسات العربية الثانية والدقيقة لتلك الحملة لا تزال غير كافية ، وهذا ما دفعني لكتابتها لأحداث حملة تيمور لنك على بلاد الشام والقاء الضوء على مقدماتها وأحداثها ونتائجها .

ورأيت استكمالاً للمقالة ترجمة مقال دى ميجنانللى De Mignanelli الكاتب اللاتيني المعاصر لأحداث هجوم تيمور لنك على بلاد الشام وتدميره حلب ودمشق . وهو المقال الذى يحمل عنوان : حياة تامرلان Vita Tamerlani أو خراب دمشق Ruina Damasci .

وقد سبق أن نرجم هذا المقال من اللاتينيه إلى الانجليزية الاستاذ والتر فشل ، وأقدمه بدورى مترجمًا ومحققا إلى اللغة العربية مع التعليق عليه فى القسم الثانى من هذا الكتاب . وذلك لأهمية هذا المقال وما يحتويه من معلومات تاريخية مفيدة عن أحوال مصر والشام فى مطلع القرن الناسع المجرى / الخامس عشر الميلادى .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

والله ولی التوفيق .

د . أحمد عبد الكريم سليمان

القسم الأول

تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة

— تيمور لنك والمغول الجغطائيون

— امبراطورية تيمور لنك

— تيمور لنك والسلطان المملوكي الظاهر برقوق

— تيمور لنك والسلطان الناصر فرج بن برقوق

تيمورلنك ودولة الماليك الجراكسة

تيمورلنك والمغول الجطائيون :

ولد تيمور لنك في عام ١٣٣٦هـ / ١٢٣٦ م في مدينة كش Kech جنوب سمرقند في منطقة كشكا داريا Qashka Darya في أقليم ما وراء النهر^(١) . وكان أبنا لطراوغاي من عشيرة البرلاس ، وهي من عشائر المغول التي قدمت مع الجطائين إلى ما وراء النهر عند احتلالهم لهذه المنطقة ، وقد أصبحت هذه العشيرة ضمن المغول المتركون^(٢) . ويختلف المؤرخون في نسبة تيمور لنك وارتقائه إلى عائلة جنكىزخان ، غير أن تيمور نفسه لم يدع هذا الانتساب ، فلم يحتفظ خاله ألفابه بلقب « الخان » ، بل كان لقبه « الأمير » . ولكل يوضح علاقته بالبيت المغولي فإنه حاز على لقب « جوركان » أو « كوركان » بمعنى شهر المأوى أو

(١) تقع مدينة كش على نهر كشكا داريا في أقليم ما وراء النهر ، وقد سميت هذه المدينة في العصور الوسطى باسم شهر بزاب أو شهر سبز أي المدينة الخضراء .

انظر : لي سترينج : بلدان الخلابة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوريكس عواد من ٥١٢—٥١٣ .

(٢) Grousset, L'Empire des steppes, p. 486; Alessandro Bausani, The Persians from the earliest days to the twentieth century... p. 124; Hilda H., Tamburlaine, p. 41; Spuler, B., les Mongols dans L'histoire, p. 102; Joseph E. Schwartzberg, A Historical Atlas of south Asia- p. 198—199.

وانظر المصادر العربية التالية وفيها أن تيمور ولد سنة ٧٢٨هـ :

ابن عريشاء : كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٥-٦ ، ابن العماد الحنفي : ثذرات الذهب في أخبار من ذهب مجلد ٤ حوادث سنة ٧٨٠-٧٦٢ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافعي على المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٤ ترجمة رقم ٧٨٥ .

— ١٢ —

شهر الخان^(٣) . ومهمما اختلفت الآراء والروايات في نسب تيمورلنك ، فإن الواقع التاريخي يثبت أنه كان امتداداً فعلياً للمغول وحضارتهم ، وأن تاريخه يمثل جزءاً من التاريخ المغولي وحلقة من حلقاته .

وكانت دولة المغول الجغطائيين في أواسط آسيا قد دب فيها الانحلال والتذكرة منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي بفعل عوامل عديدة أهمها زيادة نفوذ الارستقراطية العسكرية في الدولة ، وضعف شخصية الخانات ، والخلاف بين سكان البلاد المسلمين والمغواة المغول^(٤) . وقد انقسمت دولة المغول الجغطائيين آنذاك إلى أقاليمين : إقليم مغولستان في الشرق ويمتد من نهر سيحون Sirdarya إلى هوغن تاريم ونهر أرتشن ، وأقاليم ما وراء النهر في الغرب ، وقد حكم هذه من الأقاليمين بفرع مختلف من العائلة الجغطائية . ثم استمر الصراع بين الأقاليمين من ناحية ، وداخل كل إقليم من ناحية أخرى ، وسيطرت العشائر المغولية والتركية على المناطق التي أقامت فيها ، ومن تلك العشائر عشيرة البرلاس التي ينتهي إليها تيمورلنك ، وقد سيطرت على منطقة كشكاريا في إقليم ما وراء النهر^(٥) .

(3) Hilda, op. cit., p. 41; Barthold, four studies on the history of Central Asia, vol. 11, p. 9;

بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى نسخة د. أحمد السعيد سليمان من ٢١٧ ، وقد ذكر خواندمير أن نسب تيمور يرجع حسب ما ذكرته الكتب الشهيرة إلى «قرأجار نويان» رأس قبيلة البرلاس في عهد الفسائج المغولي جنكيرخان ، في حين ذكر البلاسي أن تيمور من أسر «مغوليسة يرتقي نسبها إلى جنكيرخان أو أحد أقربائه ، أما جروسبيه فيرى أن تيمور لم يكن مغولياً قط بل تركياً من عشيرة البرلاس . انظر : خواندمير : دستور الوزراء ترجمة وتعليق د. حربى أمين سليمان من ٣٩٢ ضمن كتابه «المؤرخ الإبراهي الكبير غياث الدين خواندمير كما بيده في كتابه دسخور الوزراء» ، البلاسي : شرفناية ج ٢ بعربيب محمد على عونى ص ٥٥ ،

Grousset, op. cit., p. 486.

(4) Hilda, op. cit., p. 38—40, Phillips, E., The Mongols, p. 125.

(5) Hilda, op. cit., pp. 38—40.

وكان تيمور لنك في بداية حياته فارسا ممتازاً و Maher في الرمي والسباح ، كما كان طموحاً إلى أن يكون من أصحاب النفوذ في إقليمه ، وعلى ذلك كونه اتباعاً مسلحين أخذ يستخدمهم في غارات النهب والسلب ، وبسبب غرانته أصبح في أحد المعارك في كتفه وخذه فأصبحت رجله عرجاء ، وذراعه مسلولة^(١) . وحازت الفرصة لـ تيمور لنك لتحقيق طموحاته عندما نشبت الاضطرابات والفتنة في إقليم ما وراء النهر عقب قتل أحد الأمراء من أصحاب النفوذ وهو الأمير قازاغان سنة ١٣٥٨ م ، فعزا عنده تغلق تيمور خان الجغطائين في إقليم مغولستان . غزا إقليم ما وراء النهر بحجية إعادة توحيد اقطاع جغطاي إلى ما كان عليه ، وقد أعلن حاجي بـ رلوس زعيم عشيرة بـ رلاس في منطقة كشـكا داريا التي هاجمها تغلق تيمور المقاومة غير المكافحة ، وهرب من شهر يـزاب إلى خراسان . وهنا نجد تيمور لنـك بدلاً من مقاومة الغزـاة لـ إقليم عـشيرته ، تجده يسارع باستغلال هذه الفرصة والدخول في طاعة تغلق تيمور خـان مـغولـستان . فـ رـحـبـ بـ ذـلـكـ تـغلـقـ وـأـسـنـدـ إـلـىـ تـيمـورـ لـنـكـ حـكـمـ منـطـقـةـ كـشـكاـ دـارـيـاـ^(٢) . ثم خاض تيمور لنـكـ بعد ذلك نضالـاً مـريـضاً ضدـ الـأـمـرـاءـ الـمـحـاـيـيـنـ الـمـنـافـسـيـنـ لـهـ ، وـخـدـدـ الـجـغـطـائـيـنـ أـنـفـسـهـمـ حتـىـ تـخلـصـ مـعـظـمـ خـصـومـهـ ، بـحيـثـ لمـ يـأتـ عـامـ ١٣٧٠ مـ / ٦٧٧١ هـ حتـىـ أـصـبـحـ تـيمـورـ لـنـكـ هـ وـالـشـخـصـيـةـ الرـئـيـسـيـةـ فـيـ بـلـادـ ماـ وـرـاءـ النـهـرـ ، لـكـنـهـ مـعـ ذـلـكـ اـحـتـمـظـ دـائـماـ

(١) ابن عريشـاهـ : مصدر سابق من ٦ ، ابن العمـادـ الحـنـبـلـيـ . مصدر سابق مجلـدـ ٤ـ سـنـةـ ٨٠٧ـ هـ من ٦٣ـ .

وبـ قالـ فـيـ أـسـبـابـ اـصـابـتـهـ روـاـبـاتـ أـخـرىـ انـظـرـ :
Hilda, op. cit., p. 43—44;

وـ كانـ اـسـمـهـ فـيـ الـبـداـةـ تـيمـورـ ، وـلـمـ أـصـبـ فـيـ خـذـهـ أـضـيفـ إـلـىـ اـسـمـهـ المـقطـعـ Lankـ أـيـ الـأـعـرـجـ ، فـأـنـصـبـ اـسـمـهـ تـيمـورـ لـنـكـ ، انـظـرـ : ابن تـغـرـىـ برـدىـ : النـجـومـ جـ ١٢ـ صـ ٢٥٥ـ ،

De Mignanelli, vita Tamerlani, p 228, Note 1, in «Oriens, vol.3.» 1956.

وـأـنـظـرـ الـقـسـمـ الثـانـيـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـنـ ٣٩ـ هـامـشـ ٦١ـ ،

(7) Hilda, op. cit., p. 42-43; Grousset, op. cit., p. 487—488

بوجود رمز للخانات الجغطائيين : في حين أصبحت السلطة الحقيقة في يد تيمورلنك الذي أعاد أنه وريث لامبراطورية الجغطائيين^(٨) .

امبراطورية تيمور لنك :

وببدأ تيمورلنك في وضع استراتيجية تهدف إلى إنشاء امبراطورية مغولية كبيرة على غرار امبراطورية جنكيزخان . ومن أجل تحقيق ذلك الهدف امتد نشاط تيمورلنك العسكري من نهر الفولجا في روسيا حتى دمشق في الشام ، ومن أذربيجان في آسيا الصغرى حتى نهر الجانج في الهند ، ناثرا الخراب والدمار والمذابح في كل المناطق التي دخلها دون أن يستقر له حكم فيها . فبعد أن تمكن منضم الأقاليم خوارزم إلى مملكته سنة ٧٨١ هـ / ١٣٨٠ م^(٩) شرع في غزو فارس منذ سنة ٥٧٨٢ / ١٣٨١ م ، فعبر نهر جيحون واخترق خراسان وزحف نحو هرآة عاصمة الكرت حيث أخضع حاكمها غياث الدين على لسلطانه^(١٠) ، ثم اتجه تيمورلنك إلى شرق.

(8) Hilda, op. cit., pp. 48—51; Grousset, op. cit., p. 493—494; Desmaisons, p., Histoire des Mongols et des Tatars par Aboul-Ghazi Behadour Khan, p. 163.

(٩) البديليسي : مصدر سابق ج ٢ ص ٥٩—٦٠ ، Grousset, op. cit., p. 498—499; Hilda, op. cit., pp. 90—95.

(١٠) البديليسي : مصدر سابق ج ٢ ص ٦١ ، Lucien Bouvat, L'Empire Mongole, p 43; Grousset, op. cit., p. 505—506; Alessandro, B., op. cit., p. 125; Hilda, op. cit., p. 103-106; Spuler, op. cit., p. 106.

وعندما ضعفت دولة مغول فارس وافتقرت سلالة هولاكو بتوت أبي سعيد سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م نشأت على انقاضها أربع دول هي : الدولة الجلائرية ، والدولة المظفرية ، ودولة الكرت ، والدولة السربدارية .. وكان الجنائزيون يحكمون مناطق بغداد ونوروز في آذربيجان وعاصمتهم توروز ، في حين حكم المظفريون — وهم من العرب — في فارس و العراق العجم وكerman وعاصمتهم يزد ، أما الكرت فحكموا في المناطق الشمالية الشرقية من فارس والأقاليم المجاورة لها وعاصمتهم هرآة ، وحكم السربداريون في سبزوار في خراسان ، للمزيد من التفاصيل انظر :

Browne, A literary history of Persia, vol. 111, pp. 60, 161—180; Lucien B.; op. cit., pp. 26 — 30; Grousset, op. cit., p. 504; Sykes p. A history of Persia, vol. 11, p. 116—117; Cambridge history of Iran, vol. 5, p. 413—414.

— ١٥ —

بخراسان فاستولى على سبزوار وقضى على أسرة السبزداريين بها ، كما استولى على مازندران وسيستان^(١) .

وواصل تيمورلنك حملاته العسكرية لاخضاع بلاد فارس كلها ، فهاجم هذه سنة ١٣٨٦/٥٧٨٨ م المناطق الغربية منها ، وزحف على اذربيجان ودخل توريز ، ثم اتجه إلى جورجيا وأرمينيا عندما سمع بأذبار هجوم خصمه طققاش خان القفقاق على اذربيجان سنة ١٣٨٧/٧٨٩ م فعاد على الفور لمواجهته . وبعد حرب قصيرة مع خان القفقاق عاد تيمورلنك إلى عملياته العسكرية في غرب أرمينيا حيث هاجم الأمراء التركمان بها . كما استولى تيمورلنك على شيراز وأصفهان وكرمان وقضى على الأسرة المغفرية الحاكمة في تلك المناطق ، وقتل في أصفهان وحدها سبعين ألف شخص ، كما نقل الحرفيين من تلك البلاد إلى عاصمته سمرفند ، وقد استغرقت تلك الحروب من تيمورلنك حتى سنة ١٣٩٣/٥٧٩٥ م^(٢) .

وكان يحكم الدولة الجلائرية في تلك الفترة السلطان أحمد بن أويس ، وقد أدرك سلطان الجلائز نوايا تيمورلنك ضدّه ، وأن دولة الجلائز لن تسلم من المصير الذي آلت إليه سائر الدول الأخرى في فارس ، وبوجه خاص بعد أن حاول تيمورلنك في عام ١٣٨٦/٥٧٨٨ م القضاء على أحمد بن أويس في تبريز لولا فراره إلى بغداد^(٣) . وبعد

(11) Alessandro, B., op. cit., p. 125; Grousset, op. cit., p. 506—507; Lucien Bouvat, op. cit., p. 43; Browne, op. cit., vol. 111, p. 160 Hilda, op. cit., pp. 106—108.

(12) Grousset, op. cit., pp. 508-511; Browne, op. cit., vol., 111, p. 160, 191; Alessandro, B., op. cit., p. 126; Hilda, op. cit., pp. 113—115; Grousset, *Histoire de L'Asie*, Part 111, Le Mond Mongol, p. 117.

(13) ابن حجر العسقلاني : *أنباء الفمر ببناء العمر* ج ١ « نحبقي د. حسن حبشي » ص ٣١٢ ، العيني : *عقد الجمان* مجلد ٢٦ مخطوط حوادث سنة ٥٧٨٨ ، ٣٠٧ ص/ص

Howorth, *History of the Mongols*, Part 111, p. 661—662.

(14) Howorth, op. cit., Part 111, p. 661—662.

(15) Browne, op. cit., vol. 111, p. 191; Lucien, B., op. cit., p. 49; Hewart, op. cit., part 111, p. 662;

(١٦) الخطيب الجوهري : نزهة للنفوس والأبدان في نوار سخن الرمان
 تحقيق د. حسن جبشي ج ١ ص ٣٦٣-٣٦٥ ، ٣٧٥-٣٧٧ ، ابن قاسبي شهبة :
 تاريخه . الجزء الثالث منه تحقيق عدنان دروش من ٤٧٣-٤٧٨ ، ٥٠٤ -
 ٥٠٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٢ ج ٢ تحقيق د. قسطنطين
 زريق ، د. نجلاء عز الدين ص ٣٤٤-٣٤٥ ، ٣٦٦-٣٦٧ ، العيني : مصدر
 سابق حوادث سنة ٧٩٥ هـ ص ٤٤٨-٤٤٦ ، ٤٥٢-٤٥٣ ، ابن حجر
 العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٠ ، ابن خلدون : التعريف بابن
 خلدون ورحلته غرباً وشرقاً تنشره محمد بن تاويت الطنجي ص ٣٦٤ : المتربي :
 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ق ٢ ص ٧٨٧-٧٨٩ ، ٧٩٩-٨٠١ -
 ابن تغري بردي : الترجمون الظاهرة ج ١٢ ص ٤٣-٤٩ ، د. حكيم أمين : فیم
 دولة الممالک الثانية ص ١٢٣-١٢٤ ،

تيمور لنك والظاهر برقوق :

وبعد أن فشل تيمور لنك في القبض على أحمد بن أويس - حسب جام غضبه على أهل بغداد وصادرهم ثلاثة مرات ، وأنزل بهم سنتين العذاب^(١٧) ، ثم حاول خداع السلطان برقوق سلطان مصر ؛ فأرسل إليه رسالة طلب فيها عقد معايدة صداقة بين الجانبيين ، وتسهيل التجارة. كما طلب في نفس الوقت إرسال أحمد بن أويس اليه^(١٨) . لكن السلطان برقوق الذي أدرك بثاقب بصره خطورة القوة المغولية الجديدة النامية في الشرق ، أدرك أيضاً أن تسليم اللاجئ السياسي إلى القاهرة هو اهانة كبيرة لشخص سلطان مصر والدولة المملوكية بأسرها . وعلى ذلك رغب بشدة طلب تيمور لنك وأعلن أنه لن يسلم السلطان الجلائري أحمد بن أويس بل لن يتخلى أيضاً عن أقل مملوك من مماليك ذلك السلطان^(١٩) . وأخذ الظاهر برقوق يستعد للحرب ، كما تم قتل رس له تيمور لنك عند الرحيبة^(٢٠).

(١٧) ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٧٥ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٣ .

(١٨) ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٥٢ ،

Grousset, L'Empire des Steppes, p. 527; Howorth, op. cit., part 111, p. 666, Browne, op. cit., vol. 111, p. 191; M. Prawdin, The Mongol empire, its rise and Legacy, p. 469; Lucien Bouvat, op. cit., p. 49;

وأنظر أيضاً : د. حكيم أمين : مرجع سابق من ١٦٧-١٦٨ .

(١٩) De Mignanelli, Ascensus Barcoch, p. 167, in «Arabica vol. VI 1959».

(٢٠) ابن خلدون : التعريف .. ص ٣٦٤ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٧٩ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٧٦١ ، ٧٦٧ .

De Mignanelli, Ascensus p. 168, Howorth, op. cit., part 111, p. 666.

وأنظر أيضاً : د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام من ١٥٨-١٥٩ .

— ١٨ —

وزاد من سرعة استعداد برقوق للحرب اكتشافه جواسيس لتيمورلنك في القاهرة جاءوا إلى مصر في هيئة تجار وأعاجم ، وقد قبض على سبعة منهم (٢١) ..

واستشاط تيمورلنك غضباً لقتل سفرايه ، فأرسل إلى برقوق رسالة شديدة اللهجة تفيض بالتهديد والانتقام ، وتنكر عليه قتل السفراء ، غير أن برقوق لم يهتر لتلك الرسالة بل رد عليها برسالة أخرى أقوى تعبيراً وأشد تهديداً (٢٢) . وبرغم الأزمة المالية الشديدة التي كانت تعاني منها مصر آنذاك (٢٣) ، فقد خرج السلطان برقوق على رأس جيشه متوجهًا إلى دمشق مصطحبًا معه أحمد بن أويس . ووصل برقوق وجيشه إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ / فبراير ١٣٩٤م ومنها إلى حلب . وفي تلك الظروف عرض السلطان بايزيد العثماني وقطمش خان القفجاق التحالف مع برقوق لأن الجميع كانوا يشعرون بخطر توسيع تيمورلنك وأعماله

(٢١) الخطيب الجوهري : نزهة النبوس ج ١ ص ٣٧٨ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٤ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٦٩ ، ابن قاضي شبهة : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٦ .

(٢٢) الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ١ ص ٣٧٣—٣٧٣ ، ابن قاضي شبهة : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٠٨—٥٠٧ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٧٣—٣٧١ ، المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨٠٣—٨٠٧ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٤٩—٥٢ ، وانظر أيضًا :

De Mignanelli, Ascensus... , p. 168—169; S. Lane Poole, A history of Egypt in the Middle ages, p. 332.

(٢٣) كانت تلك الأزمة المالية بسبب تبذيد الناصرى ومنظاش لأموال الخزانة فى فترة استيلائهم على الحكم وتفى برقوق إلى الكرك . وقد اضطر برقوق فى أثناء استعداداته للاقتاء تيمورلنك إلى الاقتراض من التجار ببلغ مليون درهم .. انظر : ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٠ ، المقريزي مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨١١ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٥٥—٥٧ ، ومن الفتن الداخلية فى أثناء تولى منظاش والناصرى الحكم فى مصر انظر : د. سعيد عاشور : العصر المملوكي فى مصر والشام ص ١٥٥—١٥٧.

wiet., Histoire de la Nations Egyptienne, Tome IV, L'Egypte Arabe, pp. 513—518.

البربرية^(٢٤) . ثم تقدمت قوات السلطان برقوق حتى قرب نهر الفرات الذي فصل بين قوات الجانبيين ، ونجحت فرقة من الماليلك في عبور الفرات ليلاً بعد أن نفخت القراب وجعلتها تحت بطون الخيل « نم هاجمت مقدمة جيش تيمورلنك وألحقت بها الهزيمة^(٢٥) . وفي تلك المظروف جاءت الأخبار إلى تيمورلنك بهجوم طقطمنش خان القفجاق على منطقة الأبواب عند الحدود بين الدولتين ، فأثر تيمورلنك الانسحاب من موافعه على الفرات لواجهة الخطر العاجل على حدود دولته ، وأجل الانتقام من الماليلك إلى فترة تالية^(٢٦) . أما أحمد بن أويس فقد جهزه السلطان برقوق وأرسله إلى بغداد حيث نجح في استعادة ملكه وهزيمة الحامية التي تركها تيمورلنك في المدينة ، ثم أصبح أحمد بن أويس نائباً في بغداد عن سلطان مصر^(٢٧) ، وبذلك امتد نفوذ السلطان برقوق إلى العراق .

(٢٤) المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨٠٧-٨٠٨ ، ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٥٢-٥٧ ، ابن اياس : بدائع الظاهر ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٨١-٣٨٢ العيني : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص ٤٥٦-٤٥٧ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٩٠ د. سعيد عاشور : العصر المالطي في مصر والشام ص ١٥٩

Grousset, L'Empire des steppes, p. 521.

(٢٥) ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٠٦-٥٠٧ . وانظر أيضاً :

De Mignonelli, Ascensus..., p. 168; S. Lane Poole, op. cit., p. 332

(٢٦) السخاوي : الضوء اللماع ج ٣ ص ٤٦ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٤ .

(٢٧) المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ٨١٤ ، ٨١٧ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٣ ص ٥١٦ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٦ ص ٤٥٧ . ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٤٧٥-٤٧٦ ، د. سعيد عاشور : العصر المالطي ص ١٥٩

Lucien Bouvat, op. cit., p. 50; Howorth, op. cit; part 111, p. 667; Grousset, L'Empire des steppes, p. 513.

— ٢٠ —

ورحل تيمورلنك عن العراق الى أرمينيا وهو عاقد العزم على العودة الى مهاجمة بلاد الشام متى سنت له الفرصة بذلك ، غير أن ظروفه الداخلية في ذلك الوقت لم تتح له تحقيق قرغيته ، فقد دخل في حرب ضد خصميه طقتمش خان القفقاج الذي عبر الدربند وهاجم الأراضي الخاصة لتيمورلنك ، كما اضطر تيمورلنك أيضا الى الزحف شمالا للفيام بحملة في جنوب روسيا وصل فيها الى قرب موسكو مما شغله لمدة عام تفريسا . ومن جهة ثانية نسبت الفتنة في فارس في أثناء غيبة تيمورلنك في روسيا ، كما أوقع الجورجيون الهزيمة بابنه ميران شاه ، فعاد تيمورلنك الى فارس لاخماد الفتنة فيها ، ثم شعر بأنه في حاجة الى اعادة تنظيم دولته والبقاء في عاصمتها فترة من الوقت للراحة والاستعداد لحملة جديدة ، فعاد الى سمرقند في عام ١٣٩٦ / ٥٧٩٩ م ^(٢٨)

وبعد أن أتم تيمورلنك استعداداته الحربية فضل الاتجاه الى الهند لاستكمال مشروعه الخاص بإنشاء امبراطورية مغولية كبرى ، وكان السبب الظاهري المعان لحملة تيمورلنك على الهند هو نشر الاسلام والقضاء على الوثنية فيها ومعاقبة ملوك الهند المسلمين على تسامدهم مع الهندوس ، غير أن الواقع الذي أغرق تيمورلنك على القييم بحملته هو تمزق سلطنة دلهي الاسلامية الى دواليات صغيرة لم تعد قادره على المواجهة ، هذا فضلا عما اشتهر به تيمورلنك من حب ارتكاب المذابح وسفك الدماء المسلمين وغير المسلمين . وقد أرسل تيمورلنك ابنه بير محمد في عام ١٣٩٨ / ٥٨٠٠ م على رأس مقدمة الجيش التيموري حيث نجح في الاستيلاء على مولتان Moultan بعد حصار دام قرابة ستة شهور . ثم عبر تيمور مع باقي الجيش نهر السند في أوائل عام ١٣٩٩ / ٥٨٠١ م سبتمبر عام ١٣٩٨ م واجتمع مع قوات ابنه بير محمد وأوقع الجيش التيموري الهزيمة بسلطان دلهي محمود شاہ الثالث (١٣٩٢ - ١٤١٢ م)

(28) Browne, op. cit., vol. 111, p. 192; Champdor, A. Farmeran, p. 109-111; Lucien B., op. cit., p. 50; Grousset, L'empire des steppes, p. 512—513.

وزير ملو اقبال Mallou IQbal ، كما استولى تيمورلنك على كثير من الأقاليم الهندية الأخرى . وأقيم الدعاء له في مساجد الهند^(٣٩) . وفي تلك الأثناء وصلت إلى مسامع تيمورلنك الأخبار عن حدوث اضطرابات شديدة في فارس فقطع حملته على الهند وعاد إلى عاصمته سمرقند في شعبان سنة ٨٠١ هـ / أبريل ١٣٩٩ م^(٤٠) .

تیمور لنک والناصر فرج :

وحدثت تطورات سياسية جديدة في سلطنة المماليك عجلت بالاصدام مع تيمورلنك ، فقد مات السلطان برقوق في شوال سنة ٨٠١هـ/يونيو ١٣٩٢ م وخلفه ابنه الناصر فرج الذي كان لا يزال طفلاً في حوالي العاشرة من عمره ، فنشبت الاختلافات وكثُرت الفتن والمؤامرات في مصر وسوريا حتى استلزم الأمر خروج السلطان الناصر فرج مع جيشه من مصر في حملة ضد تنم نائب دمشق (٣١) ، هذا في الوقت الذي كانت البلاد في أمس الحاجة إلى سلطان قوي يستطيع حد الهجمة البربرية التي كان يعدها تيمورلنك على بلاد الشام ، بل ان السلطان العثماني بايزيد الذي كان حليفاً للظاهر برقوق استغل الظروف السيئة التي كانت تمر بها سلطنة المماليك آنذاك واستولى على ملطية وكانت داخلة ضمن التفاصيل (٣٢) .

(29) Lucien B., op. cit., p. 52; Browne, op. cit., vol. 111 p. 191; Grousset, *L'empire des steppes*, p. 523—526;

و عن هذه الحملة انظر ابغا:

الدلسي : مصدر ساق ج ٢ ص ٦٧

Spuler, op. cit., p. 107; M. Prawdin, op. cit., pp. 479-484; Grousset, Histoire de L'Asie, Tome 111, Le Monde Mongol, p. 119—120.

(30) Lucien B., op. cit., p. 53; Browne, op. cit., vol. 111, p. 194.

^{٣١} ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ١٩٩

^{٢٠٠} ، ابن أباس: مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٤٢، ٥٥٥-٥٥٦، ٥٧١-٥٧٩.

^{٣٤} ابن الیاس : مصدر مسابق ج ١ ق ٢ ص ٥٤٧ ،

Wiet, op. cit., pp. 521—524.

وتذرع تيمورلنك بعدة أسباب للقيام بحملته على بلاد الشام ، فقد قام قرا يوسف التركماني بحملة على منطقة وان في أرمينيا سنة ١٣٩٥ هـ ٧٩٨ م وأسر أحد أقرباء تيمورلنك وهو الأمير أطلمش ، ثم أرسله إلى القاهرة فظل محبوساً بها ، وعندما أرسلاه تيمورلنك إلى الظاهر بررقة طالباً الإفراج عن أطلمش رفض بررقة ذلك الطلب إلا إذا أطلق تيمورلنك من جهة سراح الأمراء المالكين المعتقلين لديه^(٣٣) . وكما سبق القول فإن تيمورلنك بسبب مشاغله لم يستطع مواجهة بررقة . كذلك فإن أحمد بن أويس بعد أن عاد إلى عرشه في بغداد نائباً عن الطاهر بررقة استغل الثورة التي نشببت ضد ميران شاه بن تيمورلنك في آذربيجان والمناطق الأخرى الخاضعة له في عراقى العرب والمعجم ، استغل أحمد بن أويس هذه الثورة وغزا آذربيجان . وعندما وصلت تلك الأخبار كلها إلى تيمورلنك أدرك أن الوقت قد حان لشن الهجوم الذي طالما فكر فيه على بلاد الشام والانتقام من المالكين^(٣٤) .

وبدأ تيمورلنك حملته في أوائل عام ٨٠٣ هـ / أغسطس ١٤٠٠ م بإنكلف بعض قادته بالزحف على بغداد . ونظرًا لسوء إدارة أحمد بن أويس وأسرافه في قتل عدد كبير من اتباعه فقد نشببت في تلك الطريقة ثورة ضدّه في المدينة أجبرته على الفرار منها لطلب المساعدة من قرا يوسف ، التركماني . هذا في الوقت الذي كان تيمورلنك قد وصل إلى سيواس على رأس قواته . ولم يجد أحمد بن أويس وقرا التركماني بعد أن أدركوا خطورة العودة إلى بغداد سوى الفرار في اتجاه الشام ومنها إلى الأناضول حيث طلب أحمد بن أويس اللجوء إلى السلطان العثماني بايزيد

(٣٣) ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ١ ص ٥٠٩ - ٥٢٢ . ابن الفرات : مصدر سابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٤٥٣ ، وانظر أيضاً : ابن قاضي شبهة . مصدر سابق ج ٣ ص ٥٧٤ . د . حكيم أمين : مرجع سابق ص ١٢٩ .

Howorth, op. cit., part 111, p. 667; wieś, op. cit., p. 524.

(٣٤) Lucien B., op. cit., p. 53.

خصم تيمورلنك^(٣٥) . وعندما طلب تيمورلنك من السلطان العثماني تسليميه أحمد بن أوييس رفض العاهل العثماني في عبارات لا ترضي غرور خصمه^(٣٦) ، فأسرها تيمورلنك في نفسه وأجل انتقامه إلى ما بعد الانتهاء من معركته مع المماليك ، اذ قدر أن المناسب له القضاء أولاً على القسوة التي قد تهدد مؤخرته في حالة الحرب مع السلطان العثماني بايزيد^(٣٧) .

استيلاء تيمور لنك على حلب :

وزحف تيمورلنك من سيواس بعد أن نبهها إلى ملطية فاستولى عليها ثم نزل على بهسنا ثم عينتاب فأحرق ضياعها وقتل معظم سكانها وذلك في المحرم من سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م^(٣٨) ، ومنها اتجه إلى حلب ثم ضرب مخيمه أمام أسوارها في أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أواخر سبتمبر ١٤٠٠ م على رأس جيش ضخم^(٣٩) . وأعلن تيمورلنك أسباب حملته العسكرية

(٣٥) ابن قاضي شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصور حوادث سنة ٨٠٢ هـ من ١٦٢ ، سنة ٨٠٣ هـ من ١٧٠ ،
Howorth, op. cit., part 111, p. 668—669; M. Prawdin, op. cit., p. 490—491.

(36) Browne, op. cit., vol. 111, p. 196.

(37) M. Prawdin, op. cit., p. 491.

(٣٨) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٢٨ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ من ١٦٩—١٧٠ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٧٢—٧١ ، وانظر أيضاً : ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٩ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ف ٢ ص ٥٩٣ ،
Lucien B., op. cit., p. 55.

(٣٩) تقدر أحد المؤرخين جيش تيمور لنك بسبعينة الف رجل ، وهو تقدير قد تبدو فيه المبالغة انظر : Champdor, op. cit, p. 170.

ويع ذلك فابن خلدون بعد مقابلته لتيمور لنك في دمشق تقدر عدد جيش تيمورلنك بأكثر من ألف الف رجل: انظر : والترفسل : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ترجمة محمد توفيق ، ص ٨٥ .

وأهدانها في رسالة بعث بها من معسكره في بهسنا إلى نائب دمشق سودون والى المشايخ والقضاة والأعيان في المدينة قال فيها : « بأنه قدم في عام أول إلى العراق يريدأخذ القصاص من قتل رسle بالرحبة ، ثم عاد إلى الهند لما بلغه بما ارتکبوه من الفساد فأظفره الله بهم . فبلغه موته الظاهر فعاد وأوقع بالكرج ، ثم قصد لما بلغه قلة أدب هذا الصبي — أبي يزيد بن عثمان — أن يعرك أذنه ، ففعل بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم . ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة ويذكر اسمه في الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها . وطلب أن يرسل إليه أطلاعه ليدركه أما بمطيبة أو حاب أو دمشق ، والا فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم »^(٤٠) . غير أن سودون نائب دمشق لم يفزع لذلك التهديد بل أمر بقتل رسle تيمور لنك^(٤١) .

واستعمل تيمور لنك الدهاء والدبلوماسية مع خطواته الحربية ، اذ عمل على بذر بذور الشقاوة في صفوف الماليك في الشام . غارسل سفيراً من قبله إلى الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب يده باستمراه في نيابته ، ويطلب منه في نفس الوقت القبض على سودون نائب دمشق لأنّه قتل سفير تيمور لنك الذي توجه إليه من قبل ، فلما أخبر دمرداش باقى الأمراء الذين قدموه من سائر أنحاء بلاد الشام . قال سفير تيمور لنك لدمرداش « إنّ الأمير — أي تيمور لنك — لم يأت البلاد إلا بمكانتك إليه ،

(٤٠) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ص ١٠٣١ ، ابن ابياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٥—٥٩٦ ، ابن تفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢١٩—٢٢٠ مع اختلاف بسيط في بعض الألفاظ دون المعنى .

(٤١) ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٣ ، المعنى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٣؛ ١٧٠ ،

Hilda, op. cit., p. 223.

وقد أشارت المصادر الفارسية إلى خطاب من تيمور لنك كتبه من مملكته في شير المحرم من سنة ٨٠٣ هـ إلى الناصر فرج ، ينكر فيه قبل الظاهر برشق للسفراء دون سب وحبسه أطلاعه — من رجال بلاط تيمور لنك — انظر : ص الخطاب وترجمته في : د. حكيم أمين : قيام دولة الماليك النانية س ١٧٢ .

وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب ، وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع
خليها »^(٤٢) ، فحقن منه دمرداش وأمر بضرب عنقه^(٤٣) ، ويبدو أن
دمرداش كان يعتقد أن قوات المماليك قادرة على الوقوف في وجه تيمورلنك
ومنعه من مواصلة غزو الشام ، وهذا دليل على سوء تقدير أمراء المماليك
لقوات تيمورلنك من ناحية ، وعدم ادراكهم لحالة التفكك التي سادت
الجيش الملوكي في عهد الناصر فرج من ناحية ثانية ، هذا فضلاً عن
عجزهم عن كشف أخبار وتحركات تيمورلنك^(٤٤) .

وكان دمرداش الحمدى نائب حلب قد استنجد بنواب المدن الشامية
الأخرى مثل دمشق وطرابلس وحماء وصفد وغزة ، وقد اختلف آراء
هؤلاء في بداية الأمر في كيفية مواجهة تيمورلنك وقتاله داخل مدينة
حلب أو خارجها إلى أن استقر أمرهم في نهاية الأمر على الخروج إلى
ظاهر المدينة ، وبوجه خاص بعد أن تأخر حضور السلطان الناصر فرج
وقواته^(٤٥) . وبعد مناورات من سكان المدينة الذين ركبوا سوارها
خرجت قوات المماليك وأثبتت مع قوات تيمورلنك في قتال عنيف ، غير
أن القتال لم يكن متكافئاً ، فنجح تيمورلنك في إزالة الهزيمة بالمماليك

(٤٢) ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ،

Wiet, Op. cit., p. 526 ; De Mignanelli, vita Tamerlani p. 211, Note I, in «oriens vol. 9,» 1956.

(٤٣) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٦ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤٤) هارولد لامب : تيمورلنك ص ١١٨ .

(٤٥) ابن عريشاه : مصدر سابق من ٩٥ ، العبنى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٥-١٧٣ ، ابن حجر العسقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢١-٢٢٠ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ٢ ص ٥٩٦ ، وانظر أيضاً : د. حكيم أمين : مرجع سابق من ١٣٣ ، De Mignanelli, vita . . , p. 210.

وانظر القسم الثاني من هذا الكتاب ص ١٠ .

وأخذ يتبعهم إلى داخل حلب قتلاً وأسراً، فضلاً عما هلك من قوات المماليك المفلولة تحت حوانف الخيل^(٤٦).

واقتحمت قوات تيمور لنك مدينة حلب في ١١ ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ / ٢٠٢٢ م وأشعلت فيها النيران، وظلت أربعة أيام تعيث فساداً داخل المدينة، فقتل الأطفال جميعاً وأسرت النساء، وارتكتب الفاحشة، ثم وضع السيف في كل السكان دون تمييز حتى امتلأت المساجد والطرقات بالقتلى، كما أسرت قوات تيمور لنك الأمراء المماليك الذين اجتمعوا بقلعة المدينة، فأمر تيمور لنك بحبسهم جميعاً^(٤٧)، غير أن دمرداش المحمدي نائب حلب لقي معاملة كريمة من قبل تيمور لنك^(٤٨). وبعد أن تم نهب كنوز المدينة أعملت قوات تيمور لنك معاول الدهم فيها، ثم أشعلت النيران حتى أصبحت حلب موحشة مظلمة تتعمى أطلاها^(٤٩).

(٤٦) العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٤-١٧٥ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق ج ٤ مخطوط سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٢-١٧٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٣-٢٢٢ ، المقرizi : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٢ ، ابن ابياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٧ ، وقد أشار دي مجانيلي في روايته إلى أن قوات تيمور لنك ظاهرت بالفرار، وفتحت تغرة لقوات المماليك وسمحت لها بالتوغل داخل خطوطها ، نم أطريق جنود تيمور لنك عليهم من كل جانب وتم تدمير الجزء الأكبر من قوات المماليك وأسر الباقي . انظر : القسم الثاني ص ١٠ ،

De Mignanelli, Vita., p. 210.

(٤٧) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٥-٢٢٣ ، المقرizi : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣ ، ابن ابياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٨ . وانظر أيضاً : د. سعید عاشور : العصر المماليكي ص ١٦٠ .

(٤٨) ومن أجل تلك المعاملة اتهم دمرداش بموافقة تيمور لنك في الباطن ، واعتبر خائناً . انظر : ابن هريشة : مصدر سابق ص ٩٢ ، القسم الثاني ص ١١ ،

De Mignanelli vita..., p. 210-211.

(٤٩) المقرizi : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٣-١٠٣٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٤-٢٢٥ ، ابن ابياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٨-٥٩٩ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٥ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٧٤-٧٧ .

وغادر تيمورلنك وقواته مدينة حلب بعد أن أقاموا فيها شهراً، واتجهوا إلى دمشق ، هذا في الوقت الذي كان ميران شاه بن تيمورلنك قد استولى على حماه في ١٤٣٨ هـ / ٥ نوفمبر ١٤٠٠ م وفعل فيها مثلكما فعل أبوه في حلب^(٥٠) ، كما استولى رجال تيمورلنك أيضاً على حمص وبعلبك ، وقد عفا تيمورلنك عن حمص احتراماً لقبر خالد بن الوليد، بعدها نهب بعلبك رغم طلب أهلها الصلح والأمان ، ووصلت فرسان تيمورلنك حتى منطقة ساحل البحر المتوسط حيث نهبت صيدا وبيروت^(٥١) .

واتسم موقف السلطان الناصر فرج والأمراء المماليك في القاهرة من أحداث الشام في تلك الفترة بالعجز الشديد والقصور عن الأداء^١ السليم لجسامته الخطر الذي يهدد سلطنة المماليك بأسرها ليس فقط في بلاد الشام بل في مصر أيضاً . ومع أن نواب البلاد الشامية أرسلوا التحذيرات المقتالية إلى القاهرة منذ وصول طائع قوات تيمورلنك إلى عينتاب^(٥٢) ، فإن السلطان فرج وحاشيته لم يضعوا الخطط الفورية لمواجهة الغزاة ، بل تشاغل السلطان عن ذلك « بشرب الخمر وسماع الزمرور حتى تمكن تيمورلنك من البلاد » وعم فيها الفساد^(٥٣) ، كما أن أحد الأمراء سعى إلى إثارة الفتنة في مثل تلك الظروف الصعبة^(٥٤) ،

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٦-٢٢٥ ، المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ص ١٠٣٥ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ص ٦٠١-٦٠٠ .

(51) Hilde op. cit., pp. 226-229 ; Lucien B., Op. cit., p. 56 ; Champidor, op. cit., pp. 175-178 ; Wiet, op.cit., p. 528, Grousset, L'empire des steppes, p. 527.

(٥٢) المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ص ١٠٢٧-١٠٢٨ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٧٣ ، وانظر أيضاً : والتر فشرل : لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ، ترجمة محمد توفيق ص ٩٢ تعليق رقم (٥) .

(٥٣) ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ص ٦٠١ . وقد وصف السخاوي «الناصر فرج بأنه كان (فناكا ظالماً جباراً منهكاً إطلي الفخر والذات طامعاً في أموال الرعاعيَا) . انظر : السخاوي : الضوء اللماع ج ٦ ص ١٦٨ .

(٥٤) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ .

كذلك فان السلطان وحاشيته رفضوا دعوة السلطان العثماني بايزيد لاجتماع الكلمة وتكونين حلف ضد تيمورلنك ، بحجة أن السلطان العثماني استغل وفاة الظاهر برقوق واستولى على ملطيّة وكانت خاضعة لسلطنة المماليك^(٥٥) ، وكان رفض المماليك التحالف مع السلطان العثماني بايزيد قراراً خطأً لأنّه أتاح فرصة ذهبية لتيمورلنك لمواجهة أعدائه كلّ على حدة، هذا فضلاً عما كان فيه الأمراء المماليك في القاهرة آنذاك من صراع وتنافس ورغبة كلّ منهم في الوصول إلى منصب السلطة وابعاد غيره عنها بصرف النظر عن صالح الدولة^(٥٦) .

وتكررت تحذيرات نواب الشام واستجادهم بالسلطان هرقلج ، فاستدعي السلطان الخايفية والقضاء والأمراء وأعيان الدولة في المحرم سنة ٨٠٣ هـ / أغسطس ١٤٠٠ م للتشاور في جمع الأموال من التجار والاستيلاء على نصف الأوقاف لإنفاقها في اعداد القوات العسكرية اللازمة لحرب تيمورلنك ، ولكن القضاة اعتبروا على ذلك : الاجراءات م وتقرب أخيراً ارسال مبعوث خاص إلى بلاد الشام هو الأمير اسنبغا الدوادار لكشف الأخبار وتبسيطه قوات الشام^(٥٧) . ومع أن مبعوث السلطان إلى بلاد الشام أيد في تقاريره أنباء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام ،

(٥٥) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٧-٢١٨ ،

Hilda, op cit., p. 224.

(٥٦) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٧-٢١٨ ،

(٥٧) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢١٨ ، ويصف المؤلف السياسي في القاهرة بقوله : « ووقع التخليل والتقادع لاختلاف الكلمه وكثرة الآراء » .

وانظر أيضاً : المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٢٩ ، العينى : مصدر سابق مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧١-١٧٠ ، ابن قاضى شبهة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط مصور سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧١ ، ابن حجر . مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٤ ، ابن ابياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩٢-٥٩٤ ، والتر فشنل : لقاء ابن خلدون ٠٠ ص ٩٢-٩١ تعليق رقم (٥) ،

Wiet, op. cit., p. 526.

وورد الأخبار إلى القاهرة في أواخر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / نوفمبر ١٤٠٠ م باستيلاء تيمورلنك على حلب ، إلا أن السلطات الحاكمة في مصر لم تتخذ إجراءات التعبئة العسكرية الفورية بل حاولت التوصل من المسئولية بتكذيب تلك الأخبار والقبض على مرؤوها ليعاقب على افترائه ، وكان موقف رجال الدين في مصر على عكس ذلك تماماً ، إذ طاف شيخ الإسلام سراج الدين عمر البليقيني مع القضاة في شوارع القاهرة ونادوا في الناس بالجهاد في سبيل الله ضد العدو الذي أخذ البلاد وقتل الأطفال على صدور الأمهات وخرب الدور والمساجد^(٥٨) ، فاشتد حزع الناس واتهموا السلطان والأمراء بالقصیر في الدفاع عن الدولة^(٥٩) .

وعاد مبعوث السلطان الناصر فرج من مهمته في بلاد النمام إلى قلعة الجبل في أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ وقدم تقريراً إلى السلطان باستيلاء تيمورلنك على حلب وقلعتها بالتوافق مع نائبها الأمين دمرداش^(٦٠) ، وفي ذلك الوقت فقط شعر الناصر فرج بخطورة الموقف ، واستعد للحرب وأصدر أوامره لأمرائه بتبنيّة قواتهم ، وعرض أجناد الحلقة وجمع الخيول والجمال ، وطلب العربان من الوجهين القبلي والبحري للاشتراك في قتال تيمورلنك . ثم تحرك السلطان بقواته في الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٤٠٠ م ، أى أنه أضاع من الوقت حوالي ثلاثة أشهر دون أن يقوم بأى عمل جاد منذ بدء

(٥٨) المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ من ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ابن تاشهي شهبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط حوادث سنة ٨٠٣ هـ من ١٧٥ ، ابن ايلاس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ من ٦٠١ .

(٥٩) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ من ٢٢٩ .

(٦٠) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ من ٢٢٩ ، المقريزي : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ من ١٠٣٧ ، ابن ايلاس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ من ٦٠٢ - ٦٠١

هجوم تيمورلنك على بلاد الشام^(٦١) . ويضاف إلى ذلك اختلاف الأمراء على السلطان وعجزه عن وضع خطة عسكرية ناجحة للدفاع عن الدولة . وقد اقترح الأمير تغري بردي أن يذهب بنفسه إلى دمشق لتحصينها والدفاع عنها ضد تيمورلنك ، على أن يظل السلطان الناصر في معسكره بغزة يمده بالقوات دفعة بعد أخرى ، فإذا واصل تيمورلنك رحفه إلى مصر وقع بين قوات دمشق التي يقودها تغري بردي وبين قوات السلطان الناصر فرج في غزة ، غير أن باقي الأمراء اعترضوا على تلك الخطوة وشككوا في أخلاص الأمير تغري بردي للسلطان ، بل وذكروا للسلطان أن الأمير تغري بردي قد يتفق مع تيمورلنك عليه^(٦٢) .

وكان تيمورلنك قد أرسل سفراه إلى القاهرة في أثناء حصاره مدينة حلب متظاهراً بطلب السلام وعقد الهدنة مع الناصر فرج ، غير أن هدف تيمورلنك الحقيقي كان التجسس على أحوال السلطان وبذر بذور الشقاق بين أمراء المماليك في مصر ، فقد عرض سفراه تيمورلنك شروطاً مهيأة على السلطان هي : أن تحمل العملات الذهبية التي تسلي في أراضي السلطان فرج اسم تيمورلنك ، وأن يدفع السلطان مبلغاً كبيراً من المال ، وأن تقام الخطبة في المساجد باسم تيمورلنك . وبيدو أن السلطان وحاشيته قد رفضوا تلك الشروط ، فعادت السفارة بعد مفاوضات استمرت حوالي شهرين (صفر وربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / أكتوبر ونوفمبر ١٤٠٠ م)

(٦١) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، المقريري : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٧ ، ابن أبياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢ ، العيني : عقد الجماد مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٩ ، وانظر أيضاً : والتر فشل : لقاء ابن خلدون ص ٩٣ تعليق رقم (٥) .

Wiet., op. cit., p. 529.

(٦٢) ابن تغري بردي : النجوم ج ٠٠ ١٢ ص ٢٣٢ - ٢٣١ . الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨١ .

- ٣١ -

وهي تدخل رد السلطان الناصر فرج ومعها أيضا تقرير عن نشاطها في التجسس في القاهرة واستعدادات الناصر فرج للحرب^(٤٣).

(63) De Mignanelli, vita..., p. 212-213, 214;

القسم الثاني ص ١٤، ١٧.

وانظر أيضا:

Piloti, l'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, p. 120 ;

ويبدو أن تلك السفارة هي التي أشار إليها كلافيجو السفير الإسباني إلى تيمورلنك انظر :

Clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406, p. 43.

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تتحدث عن وصول مثل تلك السفارة إلى القاهرة في ذلك الوقت ، بل أشارت إلى أن طلب الصلح جاء إلى السلطان فرج بعد وصوله إلى دمشق في جمادى الأولى ٨٠٣ هـ . أما المصادر الفارسية فإنها ذكرت كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج في جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ يطلب فيه إرسال أطمئن وضرب السكة وإقامة الخطبة باسم تيمورلنك ولقبه والا قاته سيسنطولي على الديار . كما أوردت المصادر الفارسية أيضا - شرف الدين على يزدی في كتابه ظفرنامه - رد الناصر فرج على الخطاب وتذكر استجابته لطلبات تيمورلنك أعلى النحو التالي « نحن عبيد في مقام الطاعة والانتقاد ، وسنرسل أطمئن في خلال خمسة أيام ، فإذا جاؤنا السلطان الأعظم من جرائمه ما نتنا لن نهمل أو ننصر في أداء وظائفنا وأطاعة الأوامر واظهار الخضوع وستتعل كل ما في مكتتبنا ومقدورنا لارشاد خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » انظر : د. حكيم أمين : مرجع سابق من ١٧٢ - ١٧٥ .

غير أن تطور الأحداث التاريخية لا تؤيد ما ورد في المصادر الفارسية لأن الناصر فرج عبا جيشه وذهب إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، كما لم يفرج للناصر فرج عن أطمئن إلا عام ٨٠٥ هـ وبعد انتصار تيمورلنك على السلطان العثماني بايزيد . انظر : الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٩ حوادث سنة ٨٠٥ هـ .

استيلاء تيمورلنك على دمشق وتخريبيها :

وواصل تيمورلنك زحفه على دمشق وأرسل إلى نائب العية بها يدعوه للاستسلام فاضطراب السكان وبوجه خاص بعد سماع قصص التعذيب والتنكيل التي أذاعها الماربون من المناطق التي استولى عليها تيمورلنك، وفي تلك الظروف وصل الناصر فرج إلى دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠ م، وضرب مخيمه عند قبة يليغا بظاهر المدينة وأخذ في الاستعداد لواجهة تيمورلنك الذي أقام معسكره على قبة السيارات غربي قبة يليغا بحوالى الميلين وأخذ في مراتبة الناصر فرج^(٦٤) . وأسفرت المناوشات الأولى بين الجانبين عن هزيمة كبيرة لخدمة جيش تيمورلنك، إلا أنه نصب كميناً لقوات الناصر فرج أسفر عن مقتل عدد كبير منها، ومع ذلك فلم يتمكن تيمورلنك في ذلك الوقت من اقتحام مدينة دمشق^(٦٥) . واستخدم تيمورلنك أساليب الدهاء والشائعات للتمويه على الناصر فرج وقواته، فأشاع خمسة عن جواسيسه الذين وصلوا طرابلس بأن نصف جيش تيمورلنك عازم على الدخول في طاعة السلطان فرج، وأن ملك قبرص سيقدم المساعدة للسلطان . كما

(٦٤) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٧-٢٣٢ ، ٢٣٣-٢٣٤ ، المترizi: مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٠-١٠٤١ ، ابن خلدون : التعريف من ٣٦٧ ، والتر نشل : لقاء ابن خلدون من ٧٠ ، ص ١٠٠ تعليق رقم (١٩) .

Wiet, op. cit., p. 529.

(٦٥) De Mignanelli, Vita.., p. 215-216.

والمصادر العربية مختلفة في تحديد التاريخ الدقيق لهذه المعركة، ويرجع ذلك إلى الاختلاف بين تاريخ وقوع المعركة وبين تاريخ وصول الخبر إلى القاهرة ، ويمكن القطع بحدودها خلال شهر جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / أو آخر ديسمبر وأوائل يناير ١٤٠١ م ، ويشير دي ميغانيلي De Mignanelli إلى وقوع معركة بين الجانبين في يناير سنة ١٤٠١ م . انظر المصادر العربية التالية : ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٣-٢٣٥ ، المترizi : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤١-١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ ، العيني : مصدر سابق مجلد ٢٧ ص ١٨١ ، ابن قاضي شهبة : مصدر سابق مخطوط مصور ج ٤ ص ١٧٦ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ س ٨٢-٨٣ ، القسم الثاني من هذا الكتاب من ١٩ ، ٢٠ .

أشاع تيمورلنك بأنه راحل عن دمشق ، بل إن ابن أخيه جاء إلى معسكر السلطان فرج وأدعى أنه اختلف مع خاله ، وأن أمر تيمورلنك في التلاشي^(٦٦) .

ويبدو أن تيمورلنك أدرك بدهائه وعن طريق جواسيسه أيضاً اختلاف الأمراء المماليك على السلطان الناصر فرج فأراد توسيع شقة ذلك الخلاف ، فأرسل إلى السلطان طالباً الصلح على أن يطلق الناصر فرج سراح الأمير آطليش مقابل الإفراج عن الأمراء المماليك المقبوض عليهم في معركة حلب^(٦٧) . وصح ما توقعه تيمورلنك إذ دب الانقسام في صفوف قوات الناصر فرج ، إذ رأى فريق موافلة القتال ، وقد ظن ذلك الفريق أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم^(٦٨) ، في حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب تيمورلنك ووقف القتال^(٦٩) . ونتيجة لذلك الانقسام في الرأي فإن فريقاً ثالثاً قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة الناصر فرج ، وبادر ذلك الفريق بالاختفاء من المعركة^(٧٠) . ثم أشبع غي دمشق أن الأمراء الهاربين قد توجهوا إلى مصر إكي يسلطوا الأمير لاجين الجركسي ، فأسرع السلطان وباقى الأمراء بمعادرة دمشق في الحادى

(٦٦) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٩ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٤ ، ابن عريشاه : مصدر سابق من ٤٠٥-١٠٥ ، العبنى ، مصدر سابق مجلد ٢٧ ص ١٨١ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨٢ ،

Wiet, op. cit., p. 529.

(٦٧) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٩ ، الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ٨٢ .

(٦٨) ابن حجر المستلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ .

(٦٩) ومن هؤلاء الأمير تغري بردى ، انظر : ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٥ .

(٧٠) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٤ ، ابن اياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٩ ، ابن عريشاه : مصدر سابق من ٤٠٥-١٠٤ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ / ٧ يناير ١٤٠١ م لتقدارك الأمر في القاهرة ، وتركوا دمشق بلا قيادة تتظم أمرها أو قوات تدافع عنها^(٧١) ، وقد نهيت المشائر قوات الماليك في أثناء انسحابها إلى مصر وسلبوا ما معهم من أموال وأسلحة وأمتعة^(٧٢) .

وواجه سكان دمشق بعد رحيل الناصر وقواته موقفاً حرجاً ، فأغلقوا أبواب المدينة ، وتسلقوا أسوارها ونادوا بالجهاد ، بل ونجحوا في صد هجوم لقوات تيمورلنك عليها . وأدرك تيمورلنك أن أعمال الحيلة أجدى له في الاستيلاء على المدينة من محاولة اقتحامها ، فقد كان عرضه دخواً دمشق بأقل خسائر ممكنة . ومن أجل ذلك أرسل تيمورلنك رجلين من أتباعه يعرضان على سكان دمشق قبول الصلح^(٧٣) . وبعد مناقشات وخلافات بين زعماء المدينة وافق هؤلاء على إرسال القاضي ابن مفلح الحنبلي إلى تيمورلنك من أجل المفاوضة على شروط التسلیم ، واستعمل تيمورلنك أسلوب الخداع مع القاضي ابن مفلح ، إذ وعده بالانسحاب بعد تقديم سكان دمشق « الطرزات » أي المدايا وفقاً لعادات

(٧١) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، ابن سفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ١٢٦-١٣٦ ، ج ١٣ ص ١٥٨ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ابن خلدون : التعریف ص ٣٦٧ ، العینی : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٣ ، ابن قاضی شہبة : مصدر سابق مجلد ٤ مخطوط سنة ٨٠٣ هـ ص ١٧٧ ،

Champdor, op. cit., p. 183.

(٧٢) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٨-٢٣٧ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، العینی : مصدر سابق مجلد ٢٧ سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤-١٨٥ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ ،

القسم الثاني ص ٢٢ De Mignanelli, *Vita..*, p. 217.

(٧٣) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ ، ابن حجر العستقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٧ .

المغول^(٧٤) . وكان مما قاله تيمورلنك للقاضى ابن مفلح « هذه بلد الأنبياء » وقد أعتقدتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عن أولادى^(٧٥) ، غير أن نائب قلعة دمشق لم يوافق على شروط تيمورلنك وصمم على القتال ، وأغلق أبواب المدينة حتى اضطر القاضى ابن مفلح ووقد من أعيان المدينة إلى النزول فيما بعد من على الأسوار^(٧٦) . وأمعانا فى الخديعة منح تيمورلنك أهالى دمشق أمانا سريطة أن يدفعوا له مبلغ مئون دينار . وقد عهد إلى موظفين من أعيان دمشق وقضاتها بجمع الأموال المطلوبة ، وطلب فتح أبواب المدينة ، وعين نائبا عنه فى حكم دمشق^(٧٧) . وقد انطلت خدعة تيمورلنك على القضاة والأعيان ، فراحوا يرددون الأخبار عن محاسنه وتقواه . وحثوا الناس على جمع الأموال^(٧٨) ، وذكروا عنه أنه زعاف قبر أم حبيبة أحدى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال : « يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة عليه ؟ فلأننا إن شاء الله تعالى أبني عليه قبة » ، وذكروا عنه أيضا « أنه

(٧٤) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٣٩ .

(٧٥) ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ . وللمزيد من المعلومات من القاضى ابن مفلح انظر : ابن طولون : « التغري بالسلام فى ذكر من ولى قضاء الشام » ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٧٦) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٤٠ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١ ، ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

(٧٧) ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٤١-٢٤٠ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٢-٦١١ ، ابن حجر للسعقلانى : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ .

وقد أشار دى ميجنانلى إلى أن تيمورلنك طلب من القضاة دفع مبلغ مليون وستمائة ألف دراخمة قدرها دى ميجنانلى بما يعادل ثمانمائة ألف من الدوكات الإيطالية فى . عصره انظر : القسم الثاني من ٢٩ ، De Mignanelli, vita., p. 221.

(٧٨) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٧ ، ابن تغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٠ .

كان في مجلسه يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنبه ، وأن السبحة لا تزال في يده^(٧٩) . وفي ذلك الوقت عندما كان تيمورلنك في معسكره خارج المدينة التقى به المؤرخ المشهور ابن خلدون وأجرى معه مناقشات في كثير من الموضوعات التاريخية والدينية ، وتشفع ابن خلدون لدى تيمورلنك في بعض مواطنى دمشق ، فأجابه تيمورلنك إلى طلبه^(٨٠) .

وجمع القضاة والأعيان المبلغ الذي طلبه تيمورلنك ، لكنه لم يقتتبع به ، وألقى القبض عليهم وحبسهم حتى الترموا بجمع مبلغ عشرة ملايين دينار ذهبا ، ثم أصدر أوامره لقواته بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت بعد قتال شديد استمر تسعة وعشرين يوما رغم قلة عدد المقاتلين فيها^(٨١) . ومرة أخرى رفض تيمورلنك المبلغ الذي جمعه القضاة والأعيان بمشقة زائدة من سكان دمشق ومن أوقاف المساجد والمدارس والمشاهد والربط والزوايا وبلغ عشرة ملايين دينارا ذهبا ، وذلك بحجة اختلاف العملة وفسادها ، وقدر ذلك المبلغ بثلاثة ملايين فقط . كما صادر أموال وممتلكات الناصر فرج والقوات المصرية بأسراها من أسلحة ودواب ، كما استولى على أموال كل من هرب من سكان دمشق^(٨٢) . وألزم تيمورلنك القضاة والأعيان بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها ، كما قام مندوبون عنه

(٧٩) ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١١ .

(٨٠) للمزيد من التفاصيل من ذلك اللقاء انظر : ابن خلدون : *التعرب* ص ٣٦٨-٣٧٤ ، والتر فشل : *لقاء ابن خلدون لتيمورلنك* ، ترجمة محمد يوسف.

(٨١) ابن نفرى بردى : *النجوم* ج ١٢ ص ٢٤٢-٢٤٣ ، المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٢ ، ابن حجر مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ .

(٨٢) المقريزى : مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٩ ، ابن نفرى بردى : *النجوم* ج ١٢ ص ٢٤٣ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦١٣-٦١٤ ، وأنظر أيضا : القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٢٤ ، ٢٩-٣٠ ،

De Mignanelli, Vita ... , p. 221-223.

باثبات البضائع والأموال التي لدى التجار في قوائم جرد^(٨٣) . وبعد أن وزع أحياء المدينة على أمرائه أطلقهم داخلها باتباعهم وحوانسيهم فعاثوا فيها فساداً وطلبو لأنفسهم أموالاً ضخمة ، ولما عجز السكان عن السداد أتى جنود تيمورلنك بهم أقسى أنواع العقوبات من الضرب والحرق وارتکاب الفاحشة . ثم دخل بعض هؤلاء الأمراء وأتباعهم إلى المدينة وسيوفهم مسلولة مشهورة فمارسووا النهب والسبى قدر استطاعتهم . وأخيراً أضرموا النار في المنازل والمساجد لا سيما جامع بنى أمية الذي تهدمت سقفه وحوائطه ، وهلك معظم سكان المدينة الذين كان يقدر عددهم آنذاك بمائة ألف مواطن^(٨٤) ، وقد شاهد الرحالة الأوروبي بروكير Brocquiere الذي زار دمشق بعد ثلاثة سنين من هجوم تيمورلنك عليها ، شاهد آثار التدمير في قلعة المدينة ، كما أن أحد أحيائها كان لا يزال متهدماً لم يتم بناؤه بعد . أما الحى المسيحي فى شرقى دمشق فكان الحى الوحيد الذى لم تتمتد إليه يد التحريق^(٨٥) .

وأخيراً غادر تيمورلنك مدينة دمشق يوم السبت الثالث من شهر شعبان سنة ٨٠٣ هـ / ١٩ مارس ١٤٠١ م مصطحبًا معه في عودته كل الحرفيين والعمال المهرة الذين حفظت بهم دمشق بعد أن قبض عليهم ، وبذلك فقدت دمشق قدرتها الصناعية والاقتصادية لفترة طويلة ، ومما

(٨٣) المترizi : مصدر سابق ج ٣ ص ١٠٥٠ ، ابن نفرى بردى : النجوم ٢ ص ٢٤٤ ، ابن آياس : مصدر سابق ج ١ ص ٦١٤ ، ابن حجر : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، وأنظر أيضًا : ابن عريشاه : مصدر سابق ص ١٠٩ ، القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٢٦
De Mignanelli, Vita..., p. 220.

(٨٤) ابن عريشاه : مصدر سابق ص ١١٦-١١٧ ، ابن خلدون : التعريفه ص ٣٧٤ ، ابن حجر العسقلاني : مصدر سابق ج ٢ ص ١٣٨ ، القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٣٥
De Mignanelli, Vita.. , p. 226.

(٨٥) Thomas Wright, early Travels, p. 294, The travels of B. de la Brocquiere, A.D. 1432-1433.

يدل على حجم تلك الخسارة أن أحد الحجاج الغربيين عندما زار دمشق
مع بعض رفقائه في خلال القرن الخامس عشر الميلادي من أجل شراء
حرير سوري قيل له أن الحرير الموجود مستورد من البندقية^(٨٦) ٠

أما السلطان الناصر فرج فقد شرع بعد عودته إلى القاهرة في
الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٣ هـ / يناير ١٤٠١ م في تجهيز قوات
جديدة لارسالها إلى دمشق ، ومن أجل ذلك أذن الناصر فرج للامير يليغا
السامي في جمع الأموال المطلوبة ، فتتعسف يليغا في ذلك تعسفاً شديداً
حتى فرض على سائر أراضي مصر المقطوعة للسلطان والأمراء والأجناد
عن عبرة كل ألف دينار خمسمائة درهم فضة ، كما أخذ من سائر أراضي
البر والصدقة عن كل فدان عشرة دراهم ، كما جبي من أصحاب العقارات
في القاهرة أجراً شهر ، هذا فضلاً عن المصادرات التي تمت للفنادق
والمواصل^(٨٧) ٠ وكان الناصر فرج يتوقع معركة جديدة مع تيمورلنك ،
فلم يتوقف عن الاستعدادات الحربية ٠ وعلى الرغم من معارضة بعض
الأمراء للناصر فرج مثل الأمير جكم ، فإن الناصر كان على وشك إرسال
جيشه مرة أخرى إلى الشام لولا وصول الأمير شيخ محمودي نائب

(٨٦) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٤-٢٤٥ ، المقرizi :
مصدر سابق ج ٣ ق ٢ ص ١٠٥١-١٠٥٠ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٦١٧-٦١٤ ، القسم الثاني من هذا الكتاب ص ٤١

De Mignanelli, vita.., p. 229 ; Champdor, op. cit., p. 123;

Lucien Bouvat, op. cit., p. 57 ; Helda, op. cit., p. 235.

وانظر أيضاً اشارة كلافجو عن هجوم بيمورلنك على دمشق ونقل
للحرفيين منها إلى سمرقند في ٠

Clavijo, op. cit., p. 134 ;

د. سعيد عاشور : العصر المالبكي ص ١٦١ ٠

(٨٧) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٦-٢٤٨ ، المقرizi :
مصدر سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٢ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٦١٩ ص ٢

— ٣٩ —

طرابلس هاربا من أسر تيمورلنك وأبلغ عن رحيله من دمشق ، فتبطل
الناصر فرج أمر السفر^(٨٨) .

وقد غادر تيمورلنك دمشق للتحضير لصدام كبير مع
السلطان العثماني بايزيد ، ثم استطاع تيمورلنك أن يلحق بخصمه الكبير
هزيمة ساحقة وأسره في معركة أنقرة سنة ٨٠٥/١٤٠٢ هـ نم أرسى
بعدها إلى الناصر فرج طالبا الإفراج عن الأمير أطلمش ، فكان طبيعيا
أن يستجيب الناصر هذه المرة اطلب تيمورلنك الذي أصبح أكبر قوة
عسكرية في غرب آسيا ، فخلع الناصر فرج على أطلمش وجهزه وأعاده
إلى بلاده^(٨٩) ، ثم تلى ذلك وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧/١٤٠٥ هـ فتخلعت
بذلك دولة المالك من عدو خطير أوشك على الاحاطة بها .

(٨٨) ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٥٢ ، المترizi : مصدر
سابق ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥٧ ، ابن ايس : مصدر سابق ج ١ ق ٢ ص ٦٢٣ .

(٨٩) الخطيب الجوهري : مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٩ ،

Hilda, op. cit., p. 238-239.

وقد أشار كلابجو السفير الأسباني إلى تيمورلنك إلى سفاره من الناصر
خرج إلى تيمورلنك تقابلت مع السفير الأسباني في مدينة خوي khoy
وكانت هذه السفاره تتكون من عشرين فارسا وخمسين جيلا ، وتحمل هدايا
أرسلها الناصر فرج إلى تيمورلنك تشمل على ست من التعام Six Ostriches
وزرافة انظر :

Clavijo, op. cit., p. 149.

خاتمة

ان دراسة حملة تيمورلنك على بلاد الشام في أوائل القرن النافع
المهجرى / الخامس عشر الميلادى قد أظهرت عدة حقائق تاريخية موجزة
فيما يلى :

١ - أوضحت الدراسة كيف تمكّن تيمورلنك من الاستيلاء على
السلطة في إقليم ما وراء النهر ثم نجاحه في القضاء على الدوليات
المستقلة في غرب آسيا التي نشأت على انقضاض دولة مغول فارس ، ومن
ثم شرع تيمورلنك في تأسيس إمبراطورية مغولية كبيرة سارت على نفس
سياسة الإمبراطورية المغولية التي أسسها جنكيز خان من قبل ، وهي
السياسة العنصرية القائمة على الفتح والتوسيع وأخضاع الدول وارهاب
الشعوب ، بل ومحاولة السيطرة على العالم ٠

٢ - أوضحت الدراسة أيضاً السبب المباشر لتواتر العلاقات بين
تيمورلنك والسلطان المملوكي الظاهر برقوق وهو هروب السلطان
الجلائري أحمد بن أوييس إلى مصر ورفض الظاهر برقوق تسليمه إلى
تيمورلنك . كما كشفت الدراسة أيضاً عن السبب الحقيقي لعداء تيمورلنك
لسلطنة المماليك ، وهو رغبة تيمورلنك في اخضاع هذه السلطنة ليفوز
بل وضمها إلى إمبراطوريته ، ويتحقق ذلك من طلباته إلى المماليك باقامة
المخطبة باسمه و نقش اسمه على السكة ٠

٣ - أوضحت الدراسة أيضاً مقدرة الظاهر برقوق في إدارة الحراص
السياسي والعسكري مع تيمورلنك : ويتمثل الجانب السياسي في العلاقات
الوثيقة التي أقامها الظاهر برقوق مع كل من السلطان العثماني بايزيد
وطقطميش خان القفجاق ، وقد خشي تيمورلنك بالفعل من ذلك التحالف
الثلاثي ، فلم يجرؤ على عبور الفرات ومحاجمة بلاد الشام سنة ٥٧٩٦ / ١٣٩٤
م رغم هزيمة مقدمة جيشه على يد المماليك ٠

- ٤١ -

٤ - أوضحت الدراسة أيضاً خصوصية الناصر فرج بن برقوق وسيطرة الأمراء عليه وعجزه العسكري عن إدارة الحرب ضد تيمورلنك، بل وعجزه السياسي في رفضه التحالف مع السلطان العثماني بايزيد، مما مكن تيمورلنك من مواجهة كل فريق على حدة وأنزل به الهزيمة .

٥ - أوضحت الدراسة أيضاً أسلوب تيمورلنك في الخداع وحبه الشديد للتخدير والخراب وابتزاز الأموال وسفك الدماء ، ويتبين ذلك من استيلاء تيمورلنك على حلب ودمشق سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م - ١٤٠١ م ، وكيف تدهورت هاتان المدينتان من الناحية الاقتصادية نتيجة للنخر بسبب ما لحق بهما .

- ٤٢ -

المصادر والمراجع

(١) المصادر العربية والقارسية المعاصرة

- ١ - ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصري ت ٩٤٠ هـ
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول القسم الثاني ،
تحقيق محمد مصطفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م
- ٢ - ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحسن يوسف ت ٨٧٤ هـ
النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ، نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب ، وج ١٣ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الهيئة
المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م
- ٣ - —————
الدليل الشافى على النهل الصافى ج ١ ، ج ٢ تحقيق فهيم
محمد شلتوت — جامعة أم القرى ١٩٨٣ م
- ٤ - ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢ هـ
أنباء الغمر بآباء العمر — ثلاثة أجزاء ، تحقيق د. حسن حبشي
لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٩—١٩٧٦ م
- ٥ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني
١٩٨٣ م
- ٦ - —————
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشرها محمد بن ناويت
الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ م

— ٤٣ —

- ٧ - ابن طولون : شمس الدين محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ
الثغر البسام في ذكر من ولی قضاء الشام ٠ جزء في مجلد ٠
تحقيق د ٠ صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م ٠
- ٨ - ابن عريشاه : شهاب الدين احمد بن محمد
كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور ، الطبعة الأولى ، مطبعة
وادي النيل بالقاهرة ، ١٢٨٥ هـ ٠
- ٩ - ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ ٠ أجزاء في أربع مجلدات
طبعة بيروت ، المكتب التجارى للطبع والنشر والتوزيع ٠
- ١٠ - ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ
تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك مجلد ٩ ج ٢ ،
تحقيق د ٠ قسطنطين زريق ، د ٠ نجلاعز الدين . بيروت ١٩٣٨ م ٠
- ١١ - ابن قاضي شبهة : نقى الدين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١ هـ
تاريخ ابن قاضي شبهة : المطبوع ج ٣ تحقيق عدنان درويش -
دمشق ١٩٧٧ م ، المخطوط : أربعة مجلدات برقم ٢٤٠٢ تاريخ
تيمور - دار الكتب بالقاهرة ٠
- ١٢ - البدليسي : شرف خان ٠ بعد سنة ١٠٠٥ هـ
شرفنامة ج ٢ ، تعریب محمد على عونی ومراجعة يحيی الخذاب ،
طبع عیسی البابی الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٩٦٢ م ٠

— ٤٤ —

١٣ - الخطيب الجوهرى : على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠ هـ
نزهة النفوس والأبدان فى تواریخ الزمان . ثلاثة أجزاء . تحقيق
د . حسن حبشي . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م .

١٤ - خواندمي : غیاث الدين ت ٩٤٢ هـ
دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق د . حربى أمين سليمان ، (ضمن
كتاب : المؤرخ الايراني الكبير غیاث الدين كما يبدو فى كتابه
دستور الوزراء) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

١٥ - السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٢ جزء منشورات دار مكتبة
الحياة ، بيروت ١٩٦٦ م .

١٦ - العینى : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة
رقم ٨٢٠٣ ح مجلد ٢٦ ، ٢٧ .

١٧ - المقریزی : نقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . ج ٣ فى ثلاثة أقسام تحقيق
د . سعيد عبد الفتاح عاشور . دار الكتب ١٩٧٠ - ١٩٧١ م
القاهرة .

(ب) المراجع العربية الحديثة والترجمة

١ - بارتولد :

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، تعریف د . أحمد السعید سليمان
مکتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

- ٤٥ -

٣ - حكيم أمين عبد السيد :

قيام دولة المماليك الثانية . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

٤ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

العصر المماليكي في مصر والشام ، الطبعة الأولى - دار النهضة
ال العربية بالقاهرة ١٩٦٥ م

٥ - فشل :

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ; ترجمة محمد توفيق - منشورات
دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٦ - لي سترينج :

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوريكيس عواد
مطبعة الرابطة - بغداد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٧ - هارولد لامب :

تيمورلنك - ترجمة عمر أبو النصر - بيروت ١٩٣٤ م

(ج) المراجع الأجنبية .

1. Alessandro Bousani,

The Persians from the Earliest days to the twentieth century, translated from the Italian By : J.B. Donne, London 1971.

2. Aubin, J.,

Tamerlan à Bagdad, in «Arabica IX 1962.

— 27 —

3. Barthold,

Four studies on the history of Central Asia Leiden 1958.

4. Browne,

A literary history of Persia, Vol. 111, The tartar dominion, 1265-1502, Cambridge University Press 1951.

5. Cambridge History of Iran, Vol. 5, the Seljuk and Mongol Periods
edited by J.A. Boyle The University Press, 1968.

6. Champdor, A.,

Tamerlan, Paris 1942.

7. Clavijo, Gonzales,

Embassy to Tamerlane 1403—1406, translated from the spanish by : Guy Lestrangle, London 1928.

8. De Mignanelli,

Vita Tamerlani, Translated into English with an Introduction and a Commentary by : Walter J. fischel, in «Oriens, vol. 9. 1956».

9. —————

Ascensus Barcoch, Rendered into English with an Introduction and a commentary by : Walter J. fischel, in «Arabica Tome VI, 1959.

10. Desmaisons, P.

Histoire des Mongols et des Tatares Par Aboul Ghazi Be-hadour Khan, Amsterdam 1970.

11. Grousset, R.,

L'Empire des steppes, Paris 1948.

12. —————

Histoire de l'Asie, Part 111, Le Monde Mongol, Paris, 1922.

— 54 —

13. Hilda, H.,

Tamburlaine, The Conqueror, London 1962.

14. Howorth

History of the Mongols, Part 111, The Mongols of Persia,
London 1888.

15. Lane Pool, S.,

A history of Egypt in the Middle ages, London 1936.

16. Lucien Bouvat,

L'Empire Mongole, Paris 1927.

17. Phillips, E.,

The Mongols, London 1969.

18. Piloti, E.,

L'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, Le Caire
1950.

19. Prawdin, M.

The Mongol empire, its rise and Legacy London 1907.

20. Schatzberg, J.E.

A Historical Atlas of South Asia.

21. Spuler, B.

Les Mongols dans l'histoire, Paris 1961.

22. Sykes, P.,

A history of Persia Vol. I, II, London, 1969

23. Thomas Wright,

Early travels in Palestine, the travels of B. de la Brocquière.

24. Wiet, G.,

Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV, L'Egypte Arabe.

القسم الثاني

ترجمة مقال دی میجاناتلی

عن

حیاة تیمور لنك

VITA TAMERLANI

مقدمة

برتراندو دى ميجناللى : B. de Mignanelli

تاجر ايطالى من سينا Siena ، ولد حوالي سنة ١٣٧٠ م فى أسرة من طبقة النبلاء ، وغادر ايطاليا فى شبابه ، وتجول كثيرا فى بلاد الشرق الأدنى حتى استقر به المقام فى دمشق حيث أصبح من رجال الأعمال والثرياء فيها ، وكما قال هو عن نفسه : « وجدت هناك الثروة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابله الكثير من الجهد والمخاطر الجمة » . وتعلم دى ميجناللى خلال قيامه فى دمشق اللغة العربية على نحو طيب ، فتمكن من العمل بالترجمة التحريرية والشفوية للظاهر برقوق عند وصول يعقوب دى كروز Jacob de Croze سفير الدوق ميلان جيوفانى جاليزو Giovanni Galeazzo . وكان السفير قد حمل برسالة من الدوق يطلب يمقتضاهما الاذن من السلطان برقوق لاصلاح الباسيليكا فى بيت لحم بفلسطين ، كما يطلب حماية الآباء فى جبيل صهيون . وقد ترجم دى ميجناللى خطابات الدوق الى اللغة العربية . ورد السلطان عليها الى اللغة اللاتينية . ويبعدو أن دى ميجناللى كان ملما أيضا باللغة العبرية^(١) .

وكان دى ميجناللى يقضى شتاء عام ١٤٠٠ م - ١٤٠١ م فى القدس عندما سمع عن حملة تيمورلنك على بلاد الشام وتدميره مدينة دمشق . وقد لحق دى ميجناللى بجيش الناصر فرج المارد من ميدان المعركة الى مصر ، ثم عاد دى ميجناللى مرة أخرى الى دمشق عن طريق

(1) De Mignanelli, Vita Tamerlani, p. 209, 228 ; Walter Fischel, Introduction to Vita Tamerlani, p 206-207, in « Oriens » Vol. 9, 1956.

قبرس فى خريف عام ١٤٠٢ م ، فشاهد التخريب الذى قام به تيمورلنك فى المدينة قبل مغادرته لها . وبعد رحيل دى ميженاللى عن الأرضى المملوکية وعودته الى مسقط رأسه فى سينا قضى بعض الوقت فى مدينة قنسطنطنزاير بالمانيا ، وفي عام ١٤١٦ م كتب دى ميженاللى بناء على طلب أصدقائه مقالتين : احدهما بعنوان : «حياة تamerلان» Vita Tamerlani أو «خراب دمشق» Ruina Damasci ، والأخرى بعنوان «صعود برقوق» Ascensus Barcoch ، وهى ترجمة مفصلة لسيرته السلطان برقوق^(٢) .

(2) De Mignanelli, Vita..., P. 209 ;
Ascensus Barcoch, p. 61-62, in « Arabica » Vol. 6 (1959.)

ومن الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن تيمورلنك السفير الإسباني جونزيل دي كلانجو Gonzales de Clavijo الذي أرسله هنري الثالث ملك فرنسا ولزيون إلى بلاط تيمورلنك في سمرقند . غير أن ما كتبه كلامجو عن حصار دمشق وتدميرها لا يتعذر اشارات مليلة لأنه لم يزد سورياً معلقاً . كذلك كتاب اليمانييل بيلوتى الذى امتدت انشطته التجارية إلى كل المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط ، إلا أن ما دونه بيلوتى عن دمشق لا يتعذر فقرة باللغة الفارسية . كذلك كتاب القس الدومينيكانى جان Jean وكان استقداماً لمدينة السلطانية وعمل سفيراً لتيمورلنك إلى بلاط شارل الثاني ملك فرنسا عام ١٤٠٣ م ، كما كتب أيضاً حالته والمفاسير البافارى شيلنبرجر Schiltberger J. الذي عمل تحت امرة السلطان العثماني بايزيد ثم اسره تيمورلنك وظل مرافقاً له من عام ١٤٠٢ م إلى ١٤٠٥ م . وقد أعطى شيلنبرجر إشارات عابرة عن الأحداث التي حرت في دمشق : إنظر :

Gonzalez de clavijo, Embassy to Tamerlane, 1403-1406 ;
E. ,Piloti, l'Egypte au Commencement du quinzième siècle
p. 119-121; W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 204-205.

- ٥ -

عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر وسوريا في تلك الفترة^(٣) .

وترجم هاتين المقالتين عن أصلهما اللاتيني إلى اللغة الانجليزية ووضع بعض التعليقات عليها الاستاذ والرفسن *Walter J. Fischel* استاذ اللغات والأداب السامية ورئيس قسم لغات الشرق الأدنى في جامعة كاليفورنيا ، وهو متخصص في الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى وقد نشرت ترجمة *Vita Tamerlani* في مجلة « Ascensus Baroch » في مجلد التاسع لعام ١٩٥٦ م في حين نشرت ترجمة *Arabica* في مجلد السادس لعام ١٩٥٩ م^(٤) .

والترجمة التي نقدمها هنا باللغة العربية هي عن ترجمة الاستاذ فشنل . ولما كانت التعليقات التي وضعت في الترجمة الانجليزية قد اعتمدت على مصادر كان معظمها آنذاك لا يزال مخطوطاً أو مطبوعاً طبعات مضى عليها زمن طويل ، ثم تغير الموقف الآن فنشرت معظم المخطوطات كما أعيد طبع العديد من المصادر طبعات حديثة ، فقد رأيت اتماماً للفائدة أن أثبتت مصادر الاستاذ فشنل التي دونها في تعليقاته ، ثم أضفت بعدها المصادر التي نشرت أو أعيد طبعها حديثاً مع وضع علامة (*) التمييز بينها وبين مصادر الاستاذ فشنل ، هذا بالإضافة إلى الزيادات التي رأيت اضافتها إلى تعليقات الاستاذ فشنل لشرحها وتوضيحها ، وقد أشرت إليها أيضاً بنفس العلامة .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حياة دى ميجناللى انظر :

W. fischel, Introduction to vita Tamerlani, p. 206. Note, 2.

(٤) للمزيد من التفاصيل عن الأصل اللاتيني لهاتين المقالتين انظر :

W. Fischel, Introduction to vita..., p. 207, Note, 3, 4.

- ٦ -

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى تقديم ذلك المصدر اللاتيني الهام إلى
قراء العربية لأهميته واحتتماله على معلومات وافية وصحيحة عن تاريخ
مصر وبلاد الشام في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر م
لا غنى لباحث التاريخ عنها .

والله الموفق ٠٠

د . أحمد عبد الكريم سليمان

- ٧ -

حياة تامرلان : Vita Tamerlani

كتبها دى ميجناللى : De Mignanelli

ص (٢٠٨) ما نورده هنا يدور حول أعمال المدعو تيمورلنك، وهو من أكثر الناس شرا - في أقاليم سوريا وتركيا ، وما أحدثه من خراب مروع لـ مدينة دمشق الشهيرة ص (٢٠٩) الواقعة في أقليم سوريا ، وهي تعتبر في القسم الثالث من قارة آسيا .

أنا بلتراموس Beltramus سابقا ليوناردى دى ميجناللى Leonardo de Mignanelli من سينا Siena ، بدأ في سنة ١٤١٦ م أسجل - بناء على طلب الأصدقاء من أعمال تيمورلنك التسيرة في سوريا في أثناء إقامتي بمدينة كونستانتس Constance الألمانية وقت انعقاد المجلس العام ، حيث كنت أعيش في ذلك الجزء من العالم في تلك الفترة .

في شهر أكتوبر سنة ١٤٠٠ م جاء رجل قوي وشرير ، وهو سيد كبير يدعى تومورلنج Thomorlengh المعروف تومور بيه Tomor Bey والمعرف أيضاً تومورا ساش (١) Tomor a Sach ، جاء من موطنه في

(١) يشرح دى ميجناللى اسم تيمور في صفحة تالية من مؤلفه حياة تامرلان على النحو التالي : « ترجم اسم هذا الشيطان إلى عديد من اللغات . فما ذنه الحقيقي هو تومور Thomor وهو يعني بلغة التتار « الحميد » . ولما كان تيمورلنك أعرجا ، فقد أضيف إلى اسمه كلمة Asach وهي تعنى آخرج . وهناك آخرون أضافوا إلى اسمه بداع من الاحترام كلمة بيه « بك » Bey ، وبالتالي أصبح اسمه Tomor Bey اي السيد تيمور . أما العرس فقد أصلحوا الكلمة . lench ومعناها الأعرج ، ومن ثم سمى تيمورلنك اي تيمور الأعرج في لغتهم ..

==

— ٨ —

ذلك الجزء من العالم المسمى : **Semi-Aguilonares** أي الإقليم الواقع بين الشمال والشرق فيما وراء بلاد التتار ، وزحف على أراضي سلطان مصر وسوريا التي تقع تقريباً جنوب أراضيه التي أشرنا إليها من قبل ، فاستولى أولاً على قلعة تقع بالقرب من نهر الفرات تسمى قلعة الروم التي تعنى « حصن الرومان »^(٢) ، وقد كانت خاضعة للسلطان .

وقد استخدم دي ميجناتلي في ترجمة اللاتيني بصفة دائمة لفظ **Thomor**
أو **Thomor Lench** بدلاً من الاستعمال الغربي
الشائع **Timur** أو **Tamerlan** . أما لقب **Tamerlan**
ال رسمي فهو أمير **Gurgan** وهو الاسم الذي كان مستخدماً
على عملائه ، أو صاحب **Quiran** **Sahib Quiran** « سيد الكواكب السعيدة »
كما كان المؤرخون الفرس يسمونه « جورجان أو كوركان » بمعنى **صهر**
الملوك . وهذه التسمية لم تكن معروفة لدى دي ميجناتلي . أما المؤرخون
للغرب فأعادوا أن يشيروا إلى تيمور بأنه **الأمير** أو **السلطان** أو **الملك** .

(*) أتبينا في الترجمة العربية بعد ذلك لفظ « **تيمور** » المترافق عليه
بدلاً من **تومور** الوارد في النص اللاتيني والترجمة الإنجليزية دون الاشارة
إلى ذلك التعديل في كل مرة . وعن **تيمور لench** انظر : ابن تغري بردي : **النじوم**
الظاهرة — طبعة دار الكتب — ج ١٢ من ٢٥٤—٢٧٠ ، ابن العياد الحنبلي ،
شترات الذهب في أخبار من ذهب .. المجلد الرابع حوالث سنة ٨٠٧ هـ ص
٦٢ — ٦٣ .

(٢) حصن الرومان هذا كان يسمى أيضاً قلعة المسلمين . وطبقاً للنحو
ج ٦ ص ٨١ كان تيمور لم يتم بقراها . وعن موقع هذا المكان وغيره من الأماكن
المذكورة هنا انظر :

Le Strange, The Lands of Eastern Calphate, Cambridge 1905 ;
Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie à l'époque des Mamelouks,
Paris 1923 ; W. Popper, Egypt and Syria under the Circassian Sultans
Systematic Notes to Ibn Taghri Birdi), U.C. Publ. in Semitic philo-
logy vol. xv, Berkeley 1955.

(*) تقع هذه القلعة على الضفة اليمنى لنهرات ، وكانت بموقعها
الاستراتيجي بمثابة الباب الرئيسي لغزو سوريا ، وقد استولى عليها السلطان

— ٩ —

ثم انحدر الى مدينة مالماشيا^(٣) Malmathia التي تقع بين أرمينيا وتركيا وسوريا . ورمح بجيش لا يحصى عدده وأجبر المدينة على قبول شروطه . ثم ذهب الى أبعد من ذلك ، فعبر نهر الفرات ، ثم تقدم نحو بوزيما ، وبالقرب من مدينة الابيا Alapia^(٤) سحب جنوده وأقام معسكراً . وهي مدينة كثيفة السكان وجميلة وكبيرة وتقع على بعد أربعين ميلام من أنطاكية طبقاً (من ٢١٠) لنظام الميل في القياس عندنا .

وكان دومور دى الجيشى Do Mordey el Chasichi نائب السلطان

الاشرف خليل سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٢ م وكانت وقتها نشم حامية منولية وأرمينية ، وبعد استيلاء الاشرف خليل عليها وضع فيها حامية مملوكية وطلق عليها اسم قلعة المسلمين . انظر :

أبو النداء : المختصر في اخبار البشر ج ٤ ص ٢٦-٢٧ ; المقرizi : كتاب السلوك لمعرفة دول الملاوك ج ١ ق ٣ ص ٧٨٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٧ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج ٢ ص ٣٣٨ .
وكان تيمورلنك قد نزل على هذه القلعة ولم يقدر على الاستيلاء عليها ، فتركها ونزل عينتاب . انظر : ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦٥ .

(٣) المقصود بهذه المدينة ملطية التي استولى عليها تيمورلنك في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٤٠٠ م بعد فتحه سبيوس .

(٤) المقصود بذلك مدينة حلب .

(٥) هو دمرداش أو تمرداش الحمدي المتوفى عام ١٤١٥ م . وقد عمل نائباً في حلب ثم بعد ذلك في دمشق ، وكان من بين الشخصيات الهامة في أمراء المالك ، وقد وصف المؤرخون حياته الحافلة بالتفصيل في كل المصادر الإسلامية . انظر :

Les Biographies du Manhal Safi, ed. Wiet, Le caire 1932, p. 146
ويشير دى ميجناتلى فى Ascensus Barcoch ورقة ٦٥ بأن اسمه دومورداش الجيشى Domordex el chasichi وهي شسمبة خطأ لأنها لم ترد مطلقاً في المصادر الإسلامية .

(*) اتبنا بعد ذلك في الترجمة العربية اسم ذلك الأمير على الرسم الصحيح له دون الاشارة إلى ذلك في الحواشى تجنباً للتكرار . وعن ذلك الأمير انظر : ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٣٨-١٣٩ تحقيق د. جمال محمد محز ، فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ (١٩٧٢) ، الخطيب الجوهرى : نزهة الفنوس ج ٢ ص ٣٦٠ .

يقطن في حلب ، وهو شاب صغير قوى البنية ذو شجاعة عالية . وكان في مستهل حياته مسيحيًا من أقليم سالونيكي في بلاد اليونان والتي نسميتها نحن سالونيكا ، وقد أصبحت على أي حال إسلامية . وعندما لاحظ أعمال تيمور رغب في مقاومة ذلك العدو^(٦) . وطلب المساعدة من مواطنه الآخرين ومن ثواب السلطنة^(٧) ، خاصة من ثواب دمشق وطرابلس وحماء . وحمص والدن القريبة الأخرى . وكانت دعوته من القوة بحيث سرعان ما اجتمع لديه ما بين ثلاثين إلى خمس وأربعين ألف رجل . وانتبه هذا العدد على صغره وبعناد وشجاعة في معركة طاحنة مع جيش تيمور معتقدين أن جموع تيمور لن تجرؤ على مقاومتهم . وبخطبة ذكية تظاهرت حشود تيمور بالفرار ، وفتحت ثغرة لجيش السلطان وسمحت له بالتوغل داخل خطوطهم ثم أطبقوا عليه في نفس الوقت ، ثم حملوا على قوات السلطان التي أصبحت محاصرة ، وهجموا عليهم بعنف شديد حتى أن قوات السلطان تقهقرت بعد فترة قصيرة ، وبعد تدمير المعد الأكبر منهم تم أسرهم بسهولة كالنساء . وبعد أسر هؤلاء استسلمت مدينة حلب لتنعم .

(٦) بعد أن غزا تامرلان سيواس في ٧ سبتمبر ١٤٠٠ م ادرك الأمراء المالكين في حلب خطورة الأمر ، وأرسلوا التحذير تلو التحذير إلى السلطان في القاهرة . ولم تؤخذ هذه الاستغاثات بجدية في القاهرة ، ولم يتم أحد بعمل اي استعداد للحرب ضد تامرلان ، بل على العكس كما يقول ابن تفريز بردي ببرأة « بل كان جل قصد كل أحد منهم ما بوصله إلى سلطنة مصر وإنعد غيره عنها » . انظر : النحوين ٦٢ .

(*) انظر : ابن نعمرى بردى : النجوم ، طبعة دار الكتب ، ج ١٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٧) طبقاً لنظام الاداري لدولة المماليك كان يتم تعيين نواب للسلطان في معظم المدن الاقليمية مثل دمشق وحلب وطرابلس وحماء وحمص ... الخ ونواب القلعة في المدن الاقليمية كانوا موظفين مختلفين عن هؤلاء النواب ، فكان نائب القلعة مستقلاً عن نائب المدينة وعن الموظفين الآخرين في نفس المدينة ، وكان تابعاً للسلطان فقط .

- ١١ -

دون تأخير ، وكذلك الأقاليم المجاور لها^(٨) . وفي الحقيقة فان تمرتاش الذى أسر مثل الآخرين لم يكبل بالأغلال معهم بل كرمه تيمور كأحد نبلائه، وقام تمرتاش بامداد قوات تيمور بالمؤن فاحتفظ بحكم تلك الأقاليم التى عين عليها حاكما من قبل السلطان ، ويسبب ذلك (ص ٢١١) التكريم الذى منحه له تيمور فقد أصبح مشكوكا فى أمره لدى السلطان ولدى شعبه واعتبر خائنا^(٩) .

وعندما كان تيمور يحكم مدينة حلب فى سلام أمر غى أحد الأيام

(٨) بدأ جيش تيمور حصار مدينة حلب فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٤٠٠ م وتم استسلامها فى الثاني من نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . وتوجد تفاصيل كثيرة عن خطط تيمور العسكرية وهجومه على حلب والقضاء على ارتقابها فى المصادر الإسلامية ..

(٩) انظر : ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة مجلد ٤ حوادث سنة ٨٠٣ هـ من ١٧٢-١٧٤ ، ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر (تحقيق د . حسن جبلى) ج ٢ من ١٣٤-١٣٥ .

(٩) أكدت المصادر الغربية أيضا رقة المعاملة التى ظقها تمرتاش من تامرلان . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٢ حيث يقول بأن تامرلان : « خلع عنبه ودفع إليه أمانا وخلعا للثواب ، وأرسل معه أعدة وأقرة من أصحابه » وقد عرف فيما بعد أن الرسول الذى أرسله تامرلان إلى تمرتاش حاول أن يبتزه أمام زملائه بقوله : « إن الأمير (يعنى تيمور) لم يات البلاد إلا بمكتبيك اليه وانت تستدعيه أن ينزل على حلب ، وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها » وقد استشاط تمرتاش غضبا عند سماعه ذلك . ولا شك أن ملاحظات السفر كانت من تصميم وخداع تيمور ومكره بهدف بذر بذور الشقاق بين صفوف الجيش المملوكي ، وكان الأمراء على علم بذلك ومن ثم نشلت الخطة ، ومع ذلك ملابد من وجود بعض الشك فى ولاء تمرتاش . ومهما كان الأمر فقد فر تمرتاش من تامرلان وذهب إلى دمشق حيث عين نائبا للسلطان . انظر النجوم ج ٦ ص ٤٩-٥٧ .

(٩) انظر النجوم ج ١٢ ص ٢٢١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور (مطبعة وادى النيل فى القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) ص ٩٢ .

— ١٢ —

باحضار كل قادة السلطان ونوابه الذين كان قد أسرهم وسائلهم^(١٠) عن الوظائف التي تولوها وعن طريقة حكمهم نواباً للسلطان ، وعندما وجد بغيته^(١١) فإنه هز رأسه وقال : « انه من الواضح تماماً انكم كسايا وتعلمون تحت حكم سلطان غبي وحقير ، عينكم في مثل تلك الوظائف الكبيرة » . ثم ابتدأ بنائب دمشق^(١٢) ، ثم سألهم جميعاً عن نسبهم . ونظر بامان عن الفضائل التي توقع أن تكون قوية في هؤلاء الرجال .

(١٠) من المعروف أن تامرلان كان يستمتع بمناقشاته مع القضاة والعلماء في كل مكان كما جاءنى كل المصادر . وكان من عادته أن يسأل علماء سوريا^{*} ثم يستغل اجلبائهم كفرصة لتعيين وقتل العديد منهم : انظر : ابن عريشاه ج ١ ص ٦٤٤-٦٤٤ ، ج ٩٠-٨٠ من النجوم ج ٦ ص ٥٣-٦٦ ، السخاوي : ج ٧ ص ٤٧ .

(١١) وأنظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(١٢) لابد أن تامرلان كان يلجن إلى مترجم لأنه لم يكن يفهم العربية كما لم يكن يفهم التركية والفارسية إلا قليلاً . ومن المحتل جداً أن يكون ذلك المترجم هو العالم المشهور عبد الجبار بن النعيم المتوفى عام ١٤٠٣ م^{**} وهو العالم الحجة في الشريعة الإسلامية ، والذي جاء إلى سوريا صحبة تامرلان باعتباره من المدرسين في المناقشة والجدل ، وهو الذي أدار معظم المناقشات باسم سامرلان مع علماء حلب ثم في دمشق . وفي المثلث « ورقة ١٤٨ ب » يسمى مترجم تامرلان . انظر أيضاً : السخاوي ج ٤ رقم ١٠٣ ص ١٧-٥ ، ابن عريشاه ج ١ ص ٦٣٢ .

(*) انظر : الخطيب الجوهرى : نزهة النقوس ج ٢ ص ٨٩ حيث أشار إلى وجود أربعة فقهاء مع تيمورلنك منهم عبد الجبار ، فشنل : لقاء ابن خلدون لدورلنك ص ١٢١ (التعليق رقم ٥٨) .

(**) كان ذلك النائب هو سيف الدين سودون الذي جاء مع الامدادات التي انضمت إلى حامية حلب وأسره فيما بعد تامرلان ، وكان تامرلان يعتبره مسؤولاً عن قتل سفيرة ، وقد قتل شيئاً بعد لهذا السبب . انظر : *Manhal, ed. wiet, p. 460 No. 1119.*

(١٣) وقد ذكر ابن تغري بردى في النجوم ج ١٢ ص ٢٢٤ أن تيمور أحضر كبار الأمراء الآسرى بين مدنه وهم مكبّلون في الحديد ورئيسهم سودون نائب النساء « من أخذ بقرعهم ويوبخهم ويلوم سودون نائب الشام في قتله لرسوله ، من دفع ذلك واحد منهم إلى من يحتفظ به » .

— ١٣ —

ولما لم يجد شيئاً جديراً بالذبح فانه قال : « حقيقة انه لا قيمة لكم الا أن تكونوا رعاة للخنازير والحيوانات طالما أنكم تفتقرون الى كل نفخيلة ونبيل » . وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، لأنه قد تم بيعهم كعبيد ورعاة للحيوانات . ثم دعا تيمور رجاله للمثول بين يديه ، وكان عددهم كبيراً . ثم أشار الى رجال السلطان وقال : « هل أنتم على شاكلة هؤلاء الرجال ؟ » . لقد اعتبروا جديرين بأن يحكموا ، ومنذ أن كانوا صغاراً نعلموا الكثير . ومن الواضح أنهم لم يرعوا الحيوانات كما فعلتم أنتم » .

ص ٢١٢ : أما رجال تيمور فقد كانوا أكثر وجاهة وشرفاً بحكم مولدهم ، وكانوا رجالاً بارزين وأولى فضل وعركتهم السنون . وبعد توجيه مثل تلك الامانة لرجال السلطان فان تيمور أصدر أوامره بحصاد القمح وأن يحمله هؤلاء الرجال على ظهورهم ، وكذلك سائر أنواع الحبوب والشعير والتبغ الذي تأكله الخيول ، وكذلك الأخشاب والمؤن الأخرى المشابهة لها لسد احتياجات الجيش . وكان يأمرهم قائلاً : « افعلوا ذلك أيها الفلاحون لأنكم غير جديرين بأي عمل آخر » . ولم يفعل ذلك معهم ل حاجته الحقيقة اليهم ، فقد كان لديه عدد كبير من الرجال . بل تحقيرون واذلالاً لهم .

وبعد أن أتم ذلك فانه احتفظ بهؤلاء الرجال أسرى ، وللساخرية فانه أرسل سفراهم في مهمة سلام زائفة الى مدينة القاهرة مقر المسلمين إلى السلطان الطفل فرج^(١٣) ابن السلطان برقوق^(١٤)

(١٣) يشير الى السلطان المملوكي في ذلك الوقت وهو السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق .. وقد ولد فرج عام ١٣٨٩ م واعتلى العرش وهو في سن العاشرة في العشرين من يونيو عام ١٣٩٩ م ، ثم خلع في سنة ١٤٠٥ م ولكنه بعد فترة سبعين يوماً استعاد سلطنته وأستمر في الحكم من يونيو ١٤٠٥ م حتى وفاته في الرابعة والعشرين من عمره عام ١٤١٢ م . انظر : النجوم ج ٦ ص ٢٧٠ .

(١٤) خلع الناصر فرج من الحكم في ٢٥ من المحرم عام ٨١٥ هـ وقتل في ١٦ صفر سنة ٨١٥ هـ . انظر : النجوم الظاهرة لابن تفري بردى د ١٣ ص ١٤٦ - ١٤٧ ..

ولم يكن هدفه تحقيق السلام كما برهنت الأحداث ، بل كان هدفه التجسس على أحوال السلطان وببلاده وبذر بذور الشقاق^(١٢) . ومدينة الابيا Alapia التي تسمى حلب في العربية تقع على بعد سبعين ميل ايطالى من مدينة القاهرة . وكان السلطان في الرابعة عشر من عمره ويحكم عن طريق مجلس مكون من رجال حديث السن متغطسين . وخلال شهري أكتوبر ونوفمبر تفاوض السفراء من أجل السلام . وقرر السفراء أن تيمور راغبا في معاملة السلطان كابن له شريطة أن تحمل العملات الذهبية والفضية التي تسلي في أراضي السلطان في المستقبل اسم تيمور ، وزيادة على ذلك فقد طلب مبلغا من المال يعطى لحايريه كان من الصخامة بحيث لا تستطيع كل ايطاليا ذاتها أن تفوي به ، وأن تقام الصلوات في الماجد باسمه هو لا باسم السلطان . وكان الهدف من كل هذه الطلبات هو حكم الأقليم والسيطرة عليه^(١٣) . ولم يكن السلطان ميلا مطلقا لتلبية أي من هذه المطالب إذ أنه كان لا يزال حدثا ، لكنه فعل ذلك بناء على طلب مستشاريه .

== (١٤) كان دى ميجناتلى يكتب دائما اسم السلطان برقوق على هذا النحو .

انظر سيرة ذلك السلطان التي كتبها دى ميجناتلى بعنوان : Ascensus

Barcoch ، وتوجد ترجمة انجليزية لها وطبعات معدة للنشر .

(١٥) نشرت ترجمة Ascensus Barcoch من الأذنيبة إلى

الإنجليزية بمعرفة والتر فشنل في مجلة Arabica, Vol. 6, 1959.

(١٦) تؤيد المصادر العربية ارسال السفراء إلى السلطان نسخة في القاهرة .

(١٧) وفقا لما جاء في النجوم الظاهرة لابن نفرى بردى وكتاب السلوك للمقريزى فان طلب تيمور المسلح من السلطان الناصر فرج كان سعد وصاول الناصر إلى دمشق ولبس قبل ذلك . انظر : ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٥ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٣ .

(١٨) الشرط الخاص سك العملة باسم بور وأنانة خطبه الجمهـه باسمـه لم يرد في المصادر العربية ، إنما جاء فقط في المصادر الفارسـه . انظر : Sharaf ad-Din, 111, pp. 318-320 ; Piloti de Crete, L'Egypte, pp. 119-120

— ١٥ —

وهكذا فانه عندما انتهى حديثهم وتجسسهم أيضا عادوا الى حلب (من ٢١٣) ، وخلال الوقت الذى كان السفراء يتباطئون فيه فى المودة فان تيمور أعاد تنظيم المدينة وسائر الاقليم تماما ، وأمسك عن أن يصب عليهم من الآن فصاعدا مرارته الدفينة التى كان يكتنها لهم بعد عودته ، كما أحجم عن الكشف عن ميله الشريرة بصفة عامة ، لكنه أمر بالهجوم عن الحصن القوى أو قلعة حلب التى تقع على مرتفع منيع وأعلى من قلعة دمشق . وكان ذلك الحصن يفوق ما سواه من الحصون روعة فى تلك المنطقة . وقد دافع عنه من كانوا بداخله دفاعا باسلا . وفي نهاية الأمر وبعد أن أمر تيمور قوات السلطان باعداد الحفر التى عينها لهم كى يقتتلهم فيها رميا بالسهام ، فقد استسلمت القلعة بناء على وساطة تمرتاش المذكور آنفا ، فوضعت نهاية للحرب الدائرة بصفة مؤقتة^(١٧) .

وعندما أراد السكان العبريون في نهاية شهر نوفمبر الاحتفال بـ أحد الأعياد^(١٨) كما هو المعتاد بينهم ، وخشية أن يتم نهبهم من قبل جماعات تيمور فانهم احتشدوا في الميدان يؤدون الصلاة في خشوع وخوف . ولكن يوفروا لأنفسهم مزيدا من الحماية فانهم حملوا معهم إلى داخل الميدان كل ما يمكن حمله من أمتعتهم ، وما على ثمنه ، وعلى سبيل المثال : نقودهم وجوائزهم وأشياءهم الثمينة وما شابه ذلك . وفي ذلك الوقت كان في جيش تيمور بعض المحاربين الذين كانوا يعرفون لغة اليهود إلى حد كبير ، وما أن عرف هؤلاء بما فعله العبريون ، وبموافقة تيمور — فيما يعتقد —

(١٧) بعد اقتحام قلعة حلب سنة ١٤٠٠ م بدأ تيمور زحفه جنوبا عن طريق بعلبك بجاه دمشق وقد مكث في حلب حوالي شهر . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٣-٥٠ .

(*) انظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٥-٢٢٨ ، المقربى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٣٥-١٠٣٨ .

(١٨) من الأمور الغامضة أن نعرف ما هو العيد الذي يقع في شهر نوفمبر . والذي يشير إليه دى ميجنانلى فهو يمكن أن يكون العيد شانوكا Chanukka أو ربما عيد السبت Sabbath ؟

— ١٦ —

حتى ذهبوا مسلحين تسليحاً جيداً ومتذكرين في ذي يشبهه ذي اليهود من أجل زيارة المعبد كما أدعوا ذلك . وقد ذهبوا إلى المعبد ورؤوسهم منكسه . ويتمتمون بصلوات عبرية ثم قالوا : « نحن من قومكم وعبريون مثلكم » . واستمع هؤلاء الرجال الحمقى إلى حديثهم المسؤول عن الكتب المقدسة . والمزامير والتلمود وكل الكتب اليهودية المقدسة ، وصدقوا كل ذلك خاصة عندما سمعوا أنهم يعرفون التلمود لأنّه كان كتاباً عامضاً ولا يفهمه إلا فلة فقط ، فهو كتاب فاسد ومزيف ، وهو تقريباً نسخة محرفة من الانجيل^(١٩) .

وقال هؤلاء الرجال « المزيغون » إنهم يعبدون الله العظيم ، وأنهم جاءوا إلى المعبد للعبادة ، وبدافع من الحب الأخوي الذي يشبه في أخلاقه وفاء الكلاب ، ولحماية هؤلاء العبريين وممتلكاتهم ، ورعموا أنهم جاءوا إليهم بروح من الأخوة الأبدية من أجل المستقبل ، وأظهروا تقديساً للمعبد ، وأضافوا بأن تيمور يرغب في سلب المدينة ، وأنفروهم لحضور كل ممتلكاتهم إلى المعبد لأن ذلك أكثر أماناً ، ووعدوا وعد الذئاب متظاهرين بالحب الزائف لهم ، وأدعوا أنهم سيحمون الجميع . وقد مدق هؤلاء اليهود الحمقى المجردين من العقول كل ما قيل لهم ، وشكروا الله شكراً جزيلاً معتقدين أنهم نالوا من التكريم فوق ما اعتادوا . وامتنجت لديهم مشاعر البهجة والكبراء فراحوا يجدفون في حق أمراء المسيحيين بأسلوب مبالغ فيه لأنهم لم يكرموا الزعيم اليهودي المكابي المزيغ ، ولم يقدروه حتى قدره كما أدعى هو لنفسه . وأخذوا يغدقون الثناء ويرفعون العolloات المخلصة من أجل تمجيد ذلك الأمير العظيم لأن هؤلاء الرجال الحمقى لم يدركوا ما سيأتي به الغد^(٢٠) .

(١٩) أن وجود يهود في جيش ناصرلان ، وأن هؤلاء اليهود كانوا معروضون في العبرية والإنجليزية والتلمود هو رعم لا يصدق .

(٢٠) هذه الرواية التي رواها دى ميجناثلى عن اليهود في حلب أيام حصار ناصرلان لها هي الرواية الوحيدة الأسطورية التي سبقت إلى الحقيقة التاريخية . المزيد من التفاصيل انظر الملحى في نهاية الترجمة الإنجليزية .

وعندما أخلت المنازل وأمتلأ المعبد دخل اليهود الزائفون — من رجال تيمور — وكان كل منهم مسلحاً بسيف حاد وذبحوا اليهود كلهم كباراً وجسراً، ولم ينج أحد حتى النساء، وبعض الفتيات الصغيرات الجميلات اللائي استبقين على قيد الحياة اغتصبن في المعبد؛ لكن الآخريات قتلن • وعندما تم تدنيس المعبد بالقذارة والدماء، أفرغوه من كنوزه وقسموا الأسلاب وهم يضحكون على حماقة العبريين • وكان لدى تيمور رجال ممتازون ومهارة في اللغة العربية واليونانية والعبرية وفي كل لغة • كما كانوا على نفس القدر من المهارة في علم الفلك والهندسة والتعاویذ والاسحر، وعلى علم واخر في كل لون من أنواع المعرفة التي من ذلك القبيل.

وعاد السفراء من القاهرة بعد أن أتموا تجسسهم • وبعد تكرار تأخيرهم، وقد حملوا معهم رد السلطان إلى تيمور • وأخبروه عن الجيش الذي يعده السلطان ضده، ففعل نفس الشيء وجهز جيشاً على أهبة الاستعداد، وأنظر في فرح مجىء السلطان • وكان تيمور يتعجب أن يشع السلطان في الأسر • ولكن يسهل تيمور على نفسه ذلك العمل تظاهر بأنه يرغب في الاستيلاء على دمشق • وقد فعل ذلك كي يستدرج السلطان إلى الممر الضيق الذي اختاره تيمور بالقرب من دمشق • وقد حدث ذلك في نهاية الأمر إذ أتى السلطان إلى ذلك المكان دون أن تكون معه غواة كبيرة بل بجيش جميل المظهر يصل عدده إلى أربعين ألف • فرجان السلطان دامت لديهم خيول جيدة • وخوذات ودروع، ودروع الصدر (ص ٢١٥) وكل شيء آخر يحتاج إليه الجيش في المعركة باستثناء دروع مفاسد وسيقان الجندي، فقد كانوا غير معتادين عليها • وجاءته الإمدادات من الفتيان الذين التحقوا بالجيش فباع منهم الأقل شجاعة كمماليك كما هي العادة في بلاد السلطان •

وأتخذ السلطان بعد ذلك طريقه الى دمشق (٢١) ، وأعقبه تيمور بأن فعل نفس الشيء مع قواته ، واتجه الجيشان الى دمشق في قوة متناففة . والمسافة بين دمشق والقاهرة هي خمسة ميل ايطالي . أما حلب فهو على بعد حوالي مائتي ميل من دمشق ، وتقع حلب في اتجاه الشمال في حين تقع القاهرة في اتجاه الجنوب والى الغرب قليلا . وهكذا اقترب الطرفان من دمشق ، تيمور من الشمال ، والسلطان من الجنوب ، فحين تقع دمشق في الوسط . وكان السلطان الطفل يمكث دائمًا مع قواته عند طوله الليل (٢٢) . وهكذا كانوا بالقرب من بعضهم البعض ودمشق تقع بينهم .

ووقعت مناوشات حادة مستمرة من كلا الجانبيين ، ودافع رجال السلطان بثبات عن شرفهم ضد رجال تيمور . ومع اقتراب رأس السنة

(٢١) غادر السلطان فرج القاهرة بجيشه النظامي ومعه امراؤه وقضائه في ١٩ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . (انظر السلوك ورقة ١٢٤ والنجوم ج ٦ ص ٥٥) واتجه إلى الريadianية وهي المعسكر الأمامي للجيش الراحل إلى معركة ، وتقع على بعد ميل شمال القاهرة . وغادرت طبعة الجيش الريadianية في ٤٦ نوفمبر ، ثم تبعها السلطان بقواته الرئيسية في ٢٨ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م . وقد وصل فرج إلى غزة في ٨ ديسمبر ثم تحرك إلى دمشق في ١٤ ديسمبر حيث بلغها في ٢٣ ديسمبر فمكث في القلعة مع حرسه حتى ذهابه إلى معسكره . انظر النجوم ج ٦ ص ٥٨ .

(*) انظر النجوم طبعة دار الكتب ج ١٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٢ ، المترizi : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٣٧ - ١٠٤٠ .

(٢٢) كان معسكر فرج عند قبة يلغا مع ابن ایاس ج ١ ص ٣٢٣ يقول ان المعسكر كان في القصر الابلك خارج أسوار المدينة غربي القلعة .

(*) في بدائع الظہور لابن ایاس ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ - ٦٠٦ ان الناصر فرج دخل دمشق في السادس من جمادى الاولى ونزل بالميدان الكبير وجلس بالقصر الابلك وصلى الجمعة بدمشق ثم خرج إلى مخيمه ظاهر المدينة عند قبة بلبفا .

— ١٩ —

تشتبه معركة حادة غير عادية^(٢٣) ؛ وكان تيمور على بعد حوالي خمسة أميال من دمشق^(٢٤) ، في حين كان جيش السلطان على الجانب الآخر بولكه أكثر قرباً من المدينة . وفي هذا الموقف أظهر رجال السلطان موقفاً شجاعاً وثقة بالنفس ، ولقد كان ذلك في الحقيقة موقفاً متهوراً تجاه العدو ، وكان ذلك سيئاً بالنسبة لهم حيث كانوا قلة ضد كثرة كثيرة . مواني لاعتقد أنه لو كان السلطان راغباً في حشد كل الجيش الذي لديه في أراضيه لأحرز نصراً مجيداً على العدو . ولكنه أخذ بنصيحة الشباب الأغوار المتغطسين الذين كانوا يسيطرون عليه . ورفض بازدراة نصيحة كبار السن من مستشاريه .

وفي شهر يناير وبعد عيد الغطاس دارت معركة (من ٢٦) شرسة^(٢٥) ، وهي معركة لم يشتراك فيها الجيش بكماله ، كما أنها لم تكن

(٢٣) تعطينا كل المصادر المعنية تفاصيل متفرقة عن المناوشات وال المعارك التي وقعت في ذلك الوقت . وطبقاً للمصادر العربية فإن بعض هذه المصادرات وقعت بين طلائع الجيشين في ٢٥ ديسمبر عندما الحق مائة من الفرسان المصريين الهزيمة بالف من مقدمة جيش تامرلان . وقد ذكر شرف الدين نفسه أن الفرسان المصريين أجدوا فرسان العالم . انظر زا

Sharaf ad-Din, III, p. 313.

(*) عن هزيمة مقدمة جيش تيمور انظر المصادر العربية التالية : ابن تغرى بردى : *النجوم* ج ١٢ ص ٢٣٣ ، المقريزي : *السلوك* ج ٣ ق ٢ ص ٦٠٦—١٠٤٢ ، ابن ايس : *بدائع الзорور* ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

(٢٤) كان مركز مراقبة تامرلان يسمى قبة سيار ، وكان هذا الموضع وهو على منحدر بل يبعد عن قبة يليغا بميلين فريا ويسيطر على الرؤية ليس منقطع بالنسبة لمتشق بل بالنسبة لمساحة كبيرة من الاقليم حتى جبل هارمون Mt. Harmon . وعلى أي حال فإن تامرلان لم يكث على ذلك الشلل أكثر من شهر ، كذلك فإن السلطان فرج لم يبق طويلاً عند قبة يليغا كما سوف نرى .

(٢٥) ربما يشير دي ميجانالى هنا إلى المعركة التي وقعت في أول يناير سنة ١٤٠١ م (*النجوم* ج ٦ ص ٥٩) تبعد فرار الجناح الأيسر للجيش المصري نجح الجناح الآمن في صد هجوم عنيف نحت قياده تامرلان شخصياً الذي حاول النهاذ إلى داخل المدينة .

(*) عن هذه المعركة انظر المصادر التالية : ابن تغرى بردى : *النجوم* ج ١٢ ص ٢٣٤—٢٣٥ ، ابن ايس : *بدائع* ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ .

معركة نظامية . وقد انتصر رجال السلطان أولا ، ثم ان بعض الذين
اجبروا على الفرار على يد رجال السلطان هربوا الى معسكرهم . وعلى
أى حال فان معظم المصادر البارزة تجمع على أن ذلك العمل كان خدعة
مبيرة مسبقا ، فما أن وصلوا الى خيام تيمور حتى اجتمع حشد كبير
لا يحصى ضد رجال السلطان . وبصوت عال ، وبالصياح والعلويل ، ودوى
البوقات والآلات الأخرى انقضوا عليهم وحدثت مذبحة كبيرة سقطت
فيها أعداد لا حصر لها من الجانبيين . وأخيرا فان رجال السلطان لم
يستطيعوا أن يواجهوا مثل ذلك العدد الغفير وعجزوا عن المقاومة وأرغموا
على التقهقر . ومع حاجتهم الى ما يحفز هممهم أكثر من حاجتهم الى
الرماح فإنهم واصلوا المقاومة أمام دمشق . وأخيرا هربوا الى خيامهم
ومزقوا شر ممزق وذبح وأسر الكثير منهم .^(٣٦)

وفي الليلة التالية ألم بهم حزن عميق ، وراحوا يسترجعون حماقتهم في اليوم السابق وفشلهم في مواجهة حشود تيمور ، ولم يستطيعوا كسب بعثائهم وعيولهم . وبينما هم على هذه الحالة في الليلة التالية بعد غرائهم أعاد جيش تيمور تشكيل نفسه من جديد مبتدئاً من خيام تيمور شمالياً ومتخذًا شكل قوس على هيئة نصف دائرة ، وأنشر في اتجاه الشرق منحرفاً إلى الجنوب بالقرب من الجبل المسمى مونستريفيز (٣٧) . ثم أشعلا ناراً ضخمة حولهم من كل ناحية سدت كافة الطرق المؤدية إلى القاهرة . وكان هناك عدد كبير من الحرائق من ذلك النوع في كل مكان بحيث ساد الاعتقاد أن هذه الحرائق قد خططت

(٢٦) هذا الوصف يتفق مع ما قاله المؤرخون العرب . وقد وقعت هذه المعركة الكبرى في الخامس من يناير سنة ١٤٠١ م .

الخطيب الجوهري : نزهة النقوس ج ٢ ص ٨٣ . العنوان : عقد الجمان -
مخطوط - مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٢ .
١٢٧١ ليرين و اشحاح المقصود بهذه اللحظة .

مساحة مائة وخمسين ميلاً . ولما كان معسكر السلطان يقع في منتصف تلك النيران فقد جن جنونه عند رؤية الطريق الذي سلكه عند قدمه من القاهرة مسدوداً والذى قال رجاته أنه بوسعهم الانسحاب عن طريقته إلى القاهرة^(٢٨) . ومع الخطر الذى أحدق بـ جلال السلطان، فقد حاولوا غى فزع وخجل التفكير فى حل، فعقدوا فى الليل مجلساً للتشاور حيث قرروا الهرب سراً^(٢٩) ، واتجهوا غرباً تجاه (من ٢١٧) باراتوس Baratus لأنه لم يكن هناك طريق آخر أكثر أماناً .

(٢٨) (*) أشار الخطيب الجوهرى الى موضوع اشعان الذى ان فقال : « ظلم
اظلم للليل اوتقدوا نيرانا عظيمه ; بحيث اوقعوا فى قلوب الناس رعبا عظيمها :
انظر : الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس ج ٢ ص ٨٣ .

(٢٩) وصلت شائعة الى دمشق عن سبب هروب السلطان نوح والأمراء الى القاهرة مفادها أن هناك مؤامرة ضد السلطان دبرها في القاهرة الشيعي سيف الدين لاجين الجركسي . وقد حدث فرار السلطان نوح عائدا الى القاهرة مع الأمير يشبك في ليلة السابع من يناير عام ١٤٠١ ، ويعني ذلك ان السلطان نوح مكث في دمشق حوالي أسبوعين فقط وهي الفترة ما بين ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠م الى ٧ يناير ١٤٠١م . امامي ميجناللي فقد انضم الى الغرب الهاوب في العدد وعاد معه الى القاهرة .

(*) كان السلطان نرج قد وصل إلى دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ وغادرها في الحادي والعشرين من نفس الشهر .

(٣٠) يشير ذلك اللفظ الى بيروت . ولكن السلطان فرج وفريقيه الهايم ، كان من المستحيل عليهم ان يتذمروا مثل ذلك الطريق شماليا . ولم تتفق المصادر العربية حول الطريق الصحيح للهرب ، ومن الممكن الافتراض ما ان الطريق الذى اتخذه الناصر فرج كان بين عكا وصفد باعتباره أقصر طریق، يصل به الى ساحل غزة نه، طريق العودة الى القاهرة .

(*) انظر المصادر العربية التالية حول هذا الموضوع:

ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ١٢٦-٢٣٧ ، المشربizi : كـ ١٠٤٥
السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٥ ، الخطيب الجوهري : نزهة الاندرس ج ٢ ص ٨٥-٨٤ .
ابن ايس : بذائم الزهور ج ١١ ص ٦٠٩ .

وكان عدد هؤلاء بما فيهم السلطان الطفل حوالي ثلاثة آلاف ، وقد تحبهم الفلاحون^(٣١) بطريقة مخزية . وأخيراً فان الذين اخترقوا - ولم يتمكن الجميع - منطقة سهل نوح المسماه Elmaieg^(٣٢) في أثناء رحلتهم بين دمشق وبيروت ، استداروا الى اليسار في اتجاه القاهرة ، وقد فضلاً أن تدمر تدميرًا والاقليل بأكمله على أن يقعوا أسرى في يد تيمور وبنالهم الخزي على يديه . وهكذا وبينما السلطان يتراجع وقد وقع رجاله أسرى ونهبت خيامه بما فيها من ثروات نفيسة ، فان تيمور استدعى كل قواد جيشه وخطب فيهم قائلاً : « لقد استولينا على دمشق وأحرزنا النصر على السلطان كما تنبأت ، وكما تنبأ لي رجالى الحكماء . والآن يجب أن نتحرك بحذر حتى لا تكون مهارتنا سبباً في هزيمتنا ونفسد مشروعاتنا ، لذلك التزموا بخططي وكفوا تماماً عن احداث أي تغيرات » . وبناء على أمر تيمور فقد خلد الكل الى السكون ، وكان ذلك بدرجة كبيرة تشبه المعجزة ، اذ خلد كل شيء الى السكون بما في ذلك الخيول والحيوانات الأخرى ، وأظهروا خصوصاليس له مثيل .

وبعد انسحاب السلطان أصبح شعب دمشق بدون قيادة ، فشاع فيهم الاضطراب ، وبسبب اضطرابهم وحزنهم فانهم لم يعرفوا ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوه^(٣٣) . وقد أثار اعتدال العدو دهشتهم ، وتمنوا أن تنتهي الحرب فوراً . وبمروor الوقت ساعة تلو أخرى فانهم لم يلحظوا

(٣١) الصعب التي واجهها فريق السلطان فرج الهاوب على يد الفلاحين الوطنيين (ومعظمهم من الدروز) أثناء فراره الى القاهرة قد وصفها ومر بها ابن ابي خلدون عندما عاد في تاريخ لاحق من دمشق الى القاهرة .

(*) عن هذه الصعب انظر المصادر العربية التالية :

ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٧-٢٣٨ ،

المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ،

العبنى : عند الجان مجلد ٢٧ حوادث سنة ٨٠٣ هـ ص ١٨٤-١٨٥ ، ابن حجر : انباء الفمر ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣٢) يبدو انه يشير الى كرك نوح Karak Nuh انظر :

Gaudefroy — De Mombynes, La Syrie.., p. 74, 247.

(٣٣) بقرار السلطان فرج والأمراء أصبح أهل دمشق بلا قادة عسكريّة ، وترك أمر الدفاع عن المدينة لسكانها الذين أغلقوا عليهم أبوابها .

من فوق أسوار المدينة شيئاً غير عادي ، ولا أدنى جلبة في الخارج حتى تطرق إليهم الشك بوجود خيانة عظمى . وأخيراً وعند الظهيرة قرروا في ذلة أن يطلبوا مرور سفرائهم في أمان^(٤) . (ص ٢١٨) وعندما محووا ذلك الأمان ، أرسلوا القضاة الأربعه أني رجال الشريعة إلى تيمور : وهم رجال مهرة في الشريعة ، وكذلك الكتاب الذين طلبهم تيمور^(٥) . وعندما اقتيدوا إلى حضرته اعتقدوا أنه سيستقبلاهم استقبالاً لائقاً ، ولكنهم وجدوا عكس ذلك ، فقد تظاهر أنه لا يراهم وأعطى موافقته ! ~~سماع الآخرين أولاً~~ . وأخيراً عندما اقترب المساء قال : « من هؤلاء الغرباء ؟ ». كما لو كان لم يرهم من قبل . فخر القضاة على ركبهم وأغدقوا التملق

(٤) المقصود بعبارة Safe conduct هو الأمان في التعبير العربي . وهو رسالة تتضمن السلامة الشخصية لحامليها ، فهو مثل جواز المرور . ونعلم من المصادر أن تامرلان أرسى اثنين من سفاراته بعد فرار فرج ثانيةً أسوار دمشق ينادون من بعيد « بأن الأمير برغب في الصلح ، ومن أجل هذا أرسلوا رجالاً عائلاً ليحدثه في ذلك » . ولابد أن ذلك قد حدث في ٩ يناير سنة ١٤٠١ م . أما طلب الأمان فربما جاء استجابةً لعرض تامرلان : انظر : السلوك ورقة ١٢٦ ، النجوم ج ٦ ص ٦٣ . ابن ايسا ج ١ ص ٣٣١ .

(٥) انظر أيضاً : ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٨-٢٣٩ . المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن ايسا : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ .

(٦) لا يذكر دى ميجنانلى أسماء القضاة الأربعه والوجهاء الآخرين الذين نهبوا مقابلة تامرلان . وقد ذكرت المصادر العربية أسماءهم . فرئيس الوفد هو القاضي الحنفى تقى الدين ابراهيم بن مفلح (عنه انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢ ، ١٥٣ ، ١٥٣) ، السخاوي : ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

ويقول ابن ايسا في ج ١ ص ٣٣١ أن ابن مفلح من اختياره « لانه بجيد التركية والفارسية » أما دى ميجنانلى فإنه يفضل الظروف الخاصة التي ارغمت الوفد على تسلق أسوار دمشق على الحال كما يقول البعض بسبب رفض نائب القلعة أن يسمح بفتح أبواب المدينة لهم لطلب العفو .

انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٢-٦٣ ، ابن ايسا : ج ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٧) وانظر أيضاً : ابن تغري بردي : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٩ : المقريзи . وكتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ابن ايسا : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ . وعن القاضي ابن مفلح انظر : شمس الدين ابن طولون : قضاة دمشق ^١ « الشفر للبسام في ذكر من ولی قضاء الشام » ص ٢٨٨-٢٨٩ ، تحقيق د . صلاح المنجد طبع دمشق ١٩٥٦ م .

والفناء على تيمور وقالوا : « نحن عبيد رحمتك ، وسفراء عبيدهك تسبب
دمشق الذين يبذلون طاعة كل أمر لك ، وقد جئنا لطاعة أوامرك » . فأجابهم
تيمور : « أريدكم أن تعرفوا أننى قد جئت إلى هذه الأقاليم من بلدى
أبعيد ، وقد تكفلت نفقات وضرائب كبيرة من أجل أن أزيل عنكم مقط
أنتم الطيبون أتباع محمد المخلصون (مع أن ايمانه في الحقيقة بمحمد
أقل من ايمانى أنا دى ميجنانلى) المرض القاتل الذى طالما عانى منه
هذا البلد المقدس . اننى سوف أجاهد أن شاء الله لكي أحrrorكم من نير
المسيحيين اللعين ، ومن نير السلطان وحاشيته (وأتمنى لو كانوا مسيحيين
 حقيقيين) (*) لأن السلطان وكل المسيحيين المزورين لا يحتكمون لأى قانون .
لذلك وبداعم من توقير نبينا محمد العظم الذى أخلصت له نفسى طويلا
فإن مدينة دمشق هذه وكما ترون أستطيع تدميرها مع كل ممتلكاتكم غائى
أهباها وأمنها وأسلماها لكم أنتم الذين تقىمون فى الوقت الحاضر داخل
أسوارها بشرط أن أولئك الذين غادروها عندما عاًموا بقدومنا لن يشملهم
عطفنا ومحظتنا . وبينما عليه فان كل ممتلكات السلطان وأتباعه والذين
غادروا المدينة تضاف الى خزانتنا » (٣٥) .

وعندما سمع القضاة الحمقى هذه الكلمات فانهم بكوا فرحا وأجابوا
بأنهم يشكون الله فى الحال لقدوم (من ٢١٩) أمير له كل ذلك الاخلاص
والنقوى والرحمة ، فهو أب كبير وراعى عام بالشريعة الحمدية ،
والذى تكرم الله فوهبه لشعبه المؤمن . ووضعوا أنفسهم تحت طاعة ذلك
الأمير ، وعرضوا أن يطيعوا توصياته خصوصا فيما يتعلق بممتلكات
السلطان وأتباعه . وقد بدأ ذلك عادلا وشرعيا طالما أن هؤلاء الرجال

(*) هذه الامنية بين حاصرين . وبدو أنها صادر عن دى ميجنانلى نى
النص الأصلى .

(٣٦) رواية دى ميجنانلى هنا بضاهرى فى النقاط الرئيسة المفاسد
الدقائق الواردة فى المصادر العربية .

(*) انظر المصادر العربية التالية : المتربي . كتاب السلوك ج ٣ في ٣
حس ١٠٤٩ ، ابن تغزى بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٤٣ . اس اباس : داعع
ج ١ ق ٢ من ٦١٣-٦١٤ .

— ٢٥ —

الأغبياء المجردين من العقل ؟م يعرفوا ما الذى سوف يجلبه المستقبل
عليهم .

رحل القضاة فى فرح وحبور بعد أن وعدوا تيمور بالعودة إلى معسكره فى اليوم الذى يرغب فيه ، ثم دخلوا دمشق وأحاطوا أهلها علماً بما وقع وشجعوهم على قبول مطالب تيمور ، إذ أن ذلك من حسن الطالع لهم^(٣٧) . وطبقاً لعاداتهم فقد ساروا فى موكب عبر المدينة وضواحيها الرحبة يغدون ويحمدون الله سبحانه وتعالى حمداً لا يحصى ولا يعد . وقاموا بالبحث عن ممتلكات الذين حددتهم تيمور بدقّة وعناية . ومن عجب أن من أنسد إليه منهم مهمة البحث عن تلك الممتلكات — وهم كثير — كانوا من الحماقة بحيث أن من وجد منهم قدراً أكبر من الممتلكات كان يعتبر رجلاً مباركاً ومخلصاً لله . وهكذا فان خيام السلطان وأتباعه ، وخيوطهم وبغالهم وأبلهم وحملانهم ودوا بهم وكل ما وجدهم — وهو كثير المعد — أهدوه لخزانة تيمور . وبعد أن جرى البحث الدقيق وال شامل فان ممتلكات المواطنين المائين وأولئك الذين كانوا يعيشون من قبل فى دمشق أحضرت إلى الخزانة . واعتاد القضاة الأربع ذهاباً مرتين كل يوم إلى خيام تيمور التي كانت على بعد ميلين ايطالى من المدينة . وقام القاضى الشافعى رئيسهم والقاضى الحنفى والقاضى المالكى والقاضى الحنفى باعداد الترتيبات لموانئهم لاحضار المؤن إلى معسكر تيمور ليلاً وناماً . وبينما على أوامر تيمور التي تبعث على الذهول فإنهم كانوا يتزدرون جيئة وذهاباً على المعسكر فى أمان وهم يحملون تروات لا يصدقها العقل وأصبحت المدينة تعج بحركة دائبة مثل تل النمل .

وتتجول موظفو تيمور مع هؤلاء الذين فى المدينة خلال طرفاتها

(٣٧) عارض بعض قادة دمشق فى قبول عرض السلام عند عودة ابن ملجم من زيارته الأولى لتيمور ، لكن آراء ابن ملجم هي التى سادت فى النهاية .
لسلوك ورقة ٢٦ ب ، النجوم ج ٦ من ٦٣ :

(*) انظر : ابن تفري بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٤٠ ، المترى :
كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ من ١٠٤٦ ، ابن اياس : بدائع ج ١ ق ٢ من ٦١٠ .

وأحيائها يزورون أصحاب الحوانين ومراسك العمل والحرفيين ، كما زاروا أيضاً الأماكن التي تتم فيها المعاملات التجارية ، فإذا لم يلب دعوتهم من نودي عليه من أصحاب الحوانين فأنهم كانوا يكسرن باب حانوتهم ثم يبعثون كل ما في داخله في سلال ويحملونها إلى الخزانة . وكانوا يقررون أن تلك الممتلكات هي لرجل ظالم لا يثق في رحمة ذلك الأمير الكبير ، وهارب من وجهه . وغير راغب في انتظار معروفة . (من ٢٢٠) أما إذا أجاب صاحب الحانوت فإن كل شيء في حانوته يسجل عن آخره في وثيقة جرد موثقة ويحتفظون بها ; وربما يقولون . « نحن نفعل ذلك بناء على أمر سيدنا الذي نتجنبوا المتاعب وخطر النهب الذي قد يقوم به الأشرار لدينا والذين سوف يسعدون أن يسلبواكم ، وهذا شأنه بعملنا لن يجرؤ أحد على الحصول على ما ليس مستحقاً له . فإذا ما حدث أي سلب – وقد لا يحدث ذلك مطلقاً – فإن سيدنا سيعمل على رفع الظلم بأمانة وحق كما هو مدون في وثيقة الجرد » . وبعد انتهاءهم من الجرد كانوا يسلمون المفتاح لملك الحانوت وهم يقولون : « احفظ حانوتك : وبع بضاعتك ، افعل ما تشاء ، وزرع سلوك وفق ما نشاء » ، وفي نفس الوقت يكونون قد أثبتوا باللغة الفنود التي أحصوها في الحانوت . وبهذه الطريقة حصلوا على بيان بكل ما هو موجود في المدينة بالإضافة إلى قدر هائل من الثروات التي تم نقلها إلى الخزانة . وكثير من هؤلاء الرجال الحمقى الذين كتبوا قائمة بممتلكاتهم في وثيقة الجرد وقد رأوا بضائع الآخرين الذين كانوا غائبين عن المدينة تنتقل قسراً شكرها الله ، واعتادوا أنهم أكثر حكمة من هؤلاء الذين غادروا المدينة ^(٣٨) .

وبعد أن تم كل ذلك أمر تيمور سكان دمشق بـلا يسمحوا لأحد من أصحابهم أو عائلاتهم بدخول المدينة باستثناء قلة تم تحديدها ، وقد زعم

(٣٨) تؤكد المصادر العربية بمزيد من التفاصيل كل هذه المسائل : البحث عن ممتلكات السلطان والأمراء والتجار والحكام البارزين الذين لاذوا بالفرار من دمشق وقد تركوا وراءهم أسلحيهم وخيولهم وبغالهم .. الخ .

أنه فعل ذلك من أجل حماية وسلامة دمشق وسكانها • ولقد كان كاذباً في ذلك ، لأنَّه كان يضرم شيئاً آخر كما سيتضح فيما بعد • ثم أمر بالغلق طرقات المدينة في الأحياء الكثيرة ، كما أمر بانزال البوابات حتى لا يستطيع الإنسان أن يدخل منها أو يخرج إلا منحنياً • وزعم بأنه على ذلك النحو ستتوفر لهم حماية أفضل ، ولكن

قادرين على نقل أي شيء من الداخل

أبواب المدينة ليلاً ونهاراً بواسطة رجال الحصوص

المريبة هذه أمر في أحدى الليالي بشنق بعض الف

ثياباً مثل ثياب جنوده ، وزعم بأنهم من معاشره ، وأنهم أرادوا دمشق من داخلها وخارجها • وعندما رأى سكان دمشق الأغبياء ذذـ سـيمـ صدقـوه دون تردد ، ولوحوا بقبضاتهم في وجوه هؤلاء الذين حكم عليهم بالشنق وقالوا : « انكم لم تستقيدوا شيئاً أنتـم يا من قدمتم من بعيد كـي تـقـرـفـواـ الجـرـائـمـ » • وأقاموا الصلوات في خشوع وتفسـعـ اللهـ سـبـحانـهـ وـتـعـالـىـ كـيـ يـطـيلـ فـيـ حـيـاةـ ذـلـكـ الـأـمـيرـ الـكـبـيرـ وـيـمـنـحـهـ الشـرـفـ العـظـيمـ^(٣٩) • وأعلن تيمور أنه يرغب في شق طريق من دمشق إلى عاصمه سمرقند وأن يوفر له الحراسة أيامـاً ليلاً ونهاراً حتى ينسنـ التجـارـ تـبـادـلـ بـضـائـعـهـمـ بـيـنـ الـدـيـنـتـيـنـ وـيـزـدـادـونـ ثـرـاءـ • وقد صدق حـمـقـىـ دمشـقـ كلـ ذـلـكـ مـنـ قـلـوبـهـمـ •

وكانت قلعة دمشق ذات موقع حصين وتمتاز بالجمال من الداخل والخارج ، فأمر تيمور بمحاجمتها فوراً ودون ابطاء ، فاستسلم الحصن

(٣٩) هذه النصـةـ لاـ يـوجـدـ فـيـ المـاصـادـرـ .

بعد أيام قليلة^(٤٠) . ثم أمر بدهنه وتسويته بالأرض^(٤١) . وبعد أن أنسنوا على القلعة قال للقضاة الأربعه الكبار « لقد أحجمت بقدر الامكان عن انتقالكم بالألعاب لأنني قد توقعت أن أحد في قاعتهم المشهورة مبلغاً كبيراً من نقود السلطان غير أنني لم أجده ذلك ، فأنا مندهش وأصبت بخيبة أمل » . أنتي حزين لأنه بسببكم لا أستطيع تقديم المساعدة لرجالى المحاربين ؛ وبوجه خاص أولئك الذين يسمون Ciacathy^(٤٢) الذين أهموا وهم يستحقون مكافأة بسبب شجاعتهم ومكانتهم الكبيرة وأنا أقدرهم أكثر من الآخرين . لذلك يجب أن تساعدوهم وتعطوهם شيئاً » . فاجابه الفضة

(٤٠) ليس ذلك صحيحاً على وجه الدقة في ضوء المصادر العبيبة . إن حصار القلعة الذي بدأ فيما يبعده في ١٤ يناير استمر ثلاثة واربعين يوماً طبقاً لما قاله ابن عريشاه ج ٢ ص ٩٨ . أما الاستسلام الفعلي للحصن فقد حدث في ٢٥ يناير . أما المقريزى وأبن تغري بردى وأبن آياس فقد عدوا تسعه وعشرين يوماً من وقت الحصار . وقد وصفت المصادر استعداد ناصر لان للهجوم على القلعة والدفاع البطولى الذى قاتل به الحامية المملوكية الصغيرة في راجهة قوات العدو الساحقة .

(٤١) اعن الدفاع البطولى الذى قاتل به حامية قلعة دمشق انظر :
ابن شغري بردى : النجوم ج ١٢ من ٢٤٢-٢٤٣ .

(٤٢) كان ثالث دمشق في تلك الفترة هو يزدار Yazzadar طبقاً الرواية المعينى ورقة ٤١ ب . أما ابن عريشاه في ج ٢ ص ٧٦ فيطلق عليه اسم ازدار Azdar . وشرف للدين في ج ٣ ص ٣٣٨ ، ٣٣٥ بسميه بازدار Yazdar « حارس القلعة » .

(٤٣) وفي نزهة النقوس للخطيب الجوهري ج ٢ ص ٨٨ هو الامير يزدار .
(٤٤) تشير هذه النسبة دون شك إلى أحد ابناء جنكيرخان الأربعه وهو جنطائى jaghatai الذي كان بحكم تركستان وكشغر وغرغانة واراشى أخرى نسباً وراء نهر جيحون Oxus . وكان جنطائى بسبب معرفته الواسعة بقانون المخول القبلي الذي سعرف بالسياسة له نفوذ كبير ، كما ان اتباعه في جيش ناصر لان كان لهم مكانة خاصة مميزة . انظر :

Barthold, verlesungen, pp. 214, 217 ; ulus Beg, pp. 17-25,
Clavijo, pp. 190-191.

وانظر أيضاً : ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٥٥٧ - ٥٦٢ - ٥٦٣ .

الأربعة : « لم يبق منا على قيد الحياة الاقلة فقط ، ونحن نقراء ، ومثل الرجال المهجورين ولا نملك شيء » . فقال لهم تيمور : « أنا لا أطلب منكم ما هو فوق طاقتكم » . وأخبروا توصلوا الى اتفاق على اعطائه مبلغ مليون وستمائة ألف دراخمة من الفضة^(٤٣) . ولم يحددوا أي نوع من الدراخمة يقصدون « وكانت في الواقع مشابهة لدراخمة دمشق » لكنها نعادل ثمانمائة ألف من الدوكات . وبعد أيام أحضروا الدراخمات من ذلك النوع اليه .

وأراد تيمور أن يرى ويلمس النقود التي كان أكثر من نصفها في الواقع من الفضة ، (ص ٢٢) والباقي من النحاس مثل عملة سائر الأقلheim أي سوريا ومصر . وعندما شاهدتها تيمور ولمسها ظاهر بالغضب لأنه أدرك جيدا طبيعة العملة وحالة الأقلheim وقال : « ما هذا ؟ » فأجاب القضاة : « إنها النقود التي وعدناك بها » فسأل تيمور : « وكم وعدتم ؟ » فأجابوا مليون وستمائة ألف » ، فقال تيمور : « هذا صحيح » ، فقال القضاة : « إذن خذها بسرور وها هي » فقال لهم : « لقد سمعت عنكم دائمًا أيها الدمشقة انكم لستم رجالا بل شياطين ملعونين أعداء شريعة الله والأنسانية ، ويمؤكم الشر . ورجالا لا يحفظون عهودهم . وفقد تطرق بالحقيقة من قال بأن شعب دمشق كانوا رجالا أشرارا . هل تريدون أن تخدعني كما خدعتم الآخرين بنقوذكم المزيفة والردية التي رفضها الجميع بازدراء ؟ » . وفي الحال أحضر إلى مجلسه دراخمة باده^(٤٤) ،

(٤٣) سحدث المصادر عن مبلغ يصل الى مليون دينار .

(*) انظر المصادر العربية النازلة : ابن بغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤١ ، المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٤٧ . ابن اباس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٢-٦١٣ .

(٤٤) عن العملة المستخدمة في ذلك الوقت والنوارى مى نسب بحو...
انظر : النجوم ج ٦ ص ٦٥ ، ابن اباس ج ١ ص ٣٣٣ ، السلوك ورنة ١٢٧ .
(*) انظر : ابن بغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤١-٢٤٢ . ابن اباس :
بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٢-٦١٣ ، المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٤٨ .

وكانت هذه من الفضة الخالصة وأكثر ثقلًا من عملات دمشق حتى أن والخدمة من عملات تيمور كانت تزيد أكثر من اثنى عشرة من عملات دمشق . و قال تيمور عنده : « هذه نقودي التي أعرف لها قيمة والتي ان مارست بها في أي مكان أعمال التجارية فإنها تشرفني . و عملتكم الزائفة التي لم أرها من قبل ليست لها قيمة و مرفوضة من الجميع » .

وعندما سمع القضاة ذلك هبوا واقفين شبه موتي من الرعب و قالوا لهم ييكون : « من العسير أن يصل بنا الأمر إلى هذا الحد وأن نظل في خدمتك » . ثم ان ضباط و قادة تيمور بدأوا يتصلحون بصوت عال . قائلين : « ضع حدا للاتفاقية التي أبرمت بيننا وبينهم ، ودعنا نتعامل معهم ، لأننا نعلم ما يجب عمله مع هؤلاء الناس الذين لا يصلحون لشيء » . فقال لهم تيمور : « مهلا يا أبناء ، فمع انكم تطلبون ما هو عادل فإنه من الأفضل أن تتذرعوا بالصبر هنية » . ثم انتحرى بالقضاة جانبًا وقال : « لاحظوا هياج هؤلاء الرجال الذين يطلبون ما هو عادل وأنظروا كيف يهددونكم ، لذلك يجب اما أن تعطوا موافقتكم على الاتفاقية فيما يتعلق بالسداد والتي خرجت من يدي الآن ، وأن تطلبوا الرحمة من هؤلاء الرجال » ، فاضطرب القضاة و انتابهم الفزع و طلبوا أن يطلق سراحهم حتى اليوم التالي ليكون في مقدورهم مناقشة تلك الصعاب مع مواطنיהם ثم يعطوا رداً و أثينا فمنعوا ذلك ^(٤٥) .

ودخل القضاة المدينة و جمعوا مواطنين وأخبروهم عن وحشية السيكاثيين Ciacathari الذين كانوا رجالاً مربعين ، و تحدثوا عن الكيفية (ص ٢٢٣) التي سينتهي بها هذا الأمر – و نعتقد أنها نهاية مؤسفة – ، وأخيراً فإنه بسبب خوفهم و لتجنب ما هو أسوأ فرروا أن يدفعوا ، وقد دفعوا ، أعني تسعمائة و ستيين ألفاً من الدوكات . ثم أن

(٤٥) ورد في المصادر المشاورات التي دارت بين القضاة و مساعدتهم من ناحية و أهل دمشق من ناحية أخرى .

تيمور طلب بعد أيام قليلة نقوداً للآخرين الذين يطلق عليهم اسم «الخراسانيين»^(٤٤)، فرفض شعب دمشق ذلك، وقد طلب هؤلاء الرجال مبالغ أعلى لأنهم يفوقون السيكاثاريين عدداً، وقد نشب خلاف كبير ثم اضطروا إلى الاندفع لهم كما دفعوا إلى السيكاثاريين. غير أنهم لم يدفعوا لهم مباشرة بل أعطوا التقدّم لتيمور الذي أخذها لنفسها ووضعها في خزانته، ولم ينزل السيكاثاريون والخراسانيون إلا الكلام المسؤول. وعندما رأى شعب دمشق ذلك طلبوا الأذن بمقادرة المدينة مجردين من أي شيء؛ فرفض تيمور ذلك لاتهامه بابتزازهم مرتين أراد ابتزازهم للمرة الثالثة، فغدا طلب أموالاً لتبليته مثلاً طلب لأتباعه الآخرين. وعند ذلك بكى الفخاء ورفضوا لكتهم إذا لم ينزلوا على رغبة الأمير فانهم سوف يعانون من عذاب لا يتصور سيقع على أشخاصهم. فأي شيء آخر يمكنهم تقديمها (هذا إذا كان يمكنهم ذلك) إلى شعب تيمور كي يشتروا سكونه عنهم ينفس القدر الذي قدموه إلى السيكاثاريين والخراسانيين.

ونتيجة لعدم رضا تيمور عن ذلك الموقف من القضاة، فإنه أخذ يفكّر في طرق جديدة للابتزاز؛ فاستدعاي قضاة دمشق الأربعية إليه زاعماً أنه يرغب في العودة إلى بلده وتسعيه، وأنه لذلك يعتمّد إذا امتد به الأجل تخليص شعب دمشق من كثير من الأعباء الثقيلة الكثيرة. واقتصر أن يحقق لهم الشراء بمصاحبه من دمشق إلى مدینته العظيمة سرقند حيث ينالون ثروة كبيرة؛ وأنه سيغفّفهم ن كل الضرائب أكرااماً لـ^(٤٥) . نم طلب تيمور منهم أن يمدوه — لأنّه شيخ Calepind كبير متهاك — ببعض المساعدات التي تعينه على رحلته إلى وطنه الذي يرغب في رؤيته، وأن يقفّي ما تبقى له من أيام عمره القليلة في سلام.

(٤٤) من الواضح أن المقصود بهذه النسمة هم أهل خراسان.

(٤٥) هذا النطق غامض.

(٤٦) يبدو أن الكلمة Calepind هي تحريف لكلمة Caliph اي الخليفة.

وقد وعدهم بالكثير اذا ما تمت الرحلة بسلام الى ياده ، فرفضوا ذلك تماما ، وبخرج شديد لعجزهم عن توفير المؤن ، ولكن عندما فكروا في رحيله فانهم شعروا في داخليهم بالراحة . ودخل القضاة المدينة ووضعوا أمام الشعب التماس تيمور نيابة عنه ، وراحوا يواسون الشعب بكلمات جافة غير مستساغة عن رحيله المتوقع . وابتعد الدمشقة الحمقى الصعفاء المصطربون (من ٢٢٤) لأنباء رحيل تيمور ، بيد أنه اعتراهم القلق لطلب الأموال . وفي النهاية عرضوا خمسماة ألف من الدوكات وهم على ثقة من رحيله ، لكن تيمور رفض ذلك المبلغ بازدراء لأنه في رأيه قليل جدا ، وطلب المزيد وقال بأنه اذا لم يحصل على مطلبه فسوف يبقى في دمشق إلى الأبد . وأخيرا جمعوا له مليونا وخمسماة ألف من الدوكات وقدموه لهم بيكون ويولولون وقد راودهم الأمل عندئذ في رحيله ، كما شعروا بقليل من الراحة .

وعندما استخدم تيمور كل سلطته الخبيثة لكي يحملهم على تسليمه أموالهم لجأ إلى وسائله الشيرية السافرة كي ينتزع منهم المال الذي طلبه ، فأرسل إلى موظفيه الذين يحملون قوائم الجرد التي سبق الاشارة إليها ، كما استدعي أصحاب الحوانين للمثول أمامه . واحيطوا علما بأنه نظراً لعدم كفاية المال المدفوع له فإنه مضطر لاتخاذ وسائل أخرى من أجل النفقات التي سوف يحتاجها ذلك الجيش الكبير في رحلاته ، لذلك فإنه قرر بأن السلع والبضائع الموجودة في حوانينهم ومصانعهم يجب عليهم إما أن يفتدوها بالمال أو تحرق وتحول إلى رماد ، فانتدب الدمشقة المسؤولين وقالوا إنهم لا يملكون شيئا . وعلى ذلك فإن الذين لم يفتدوا بضائعهم في الحال فإنها حملت إلى خزانة تيمور أو أحرقت ، وللهذا السبب فإن الكثير قد افتدوا بضائعهم بالأموال التي يخفونها ، ودفعوا عنها فائدة حوالي نصف فيetasها . أما تيمور فاحتفظ بقوائم البرد ، وبالتالي استطاع ابتناز مبالغ كبيرة من المال ، كما تم اثبات كل ما قدموه وما بقى في الحوانين في قوائم الجرد . ثم انتقل تيمور إلى ممتلكاتهم التي لا يمكن حملها ، وعلى سبيل المثال : منازلهم وحواينيتهم ومزارعهم

وأشياء من ذلك القبيل ، وقد باعوا هذه الأشياء بنصف قيمتها أو أقل ؛
أما تلك التي لم تبع فقد خربت تماماً ، وهكذا تكدرست لديه مبالغ كبيرة
من المال^(٤٨) .

وأخيراً عندما رأى تيمور أنه لم يعد في استطاعتهأخذ المزيد من
الأموال سواء بالحق أو بالباطل استدعي نبلاءه وقواده وقال لهم : « لقد
جمعت أموالاً قليلة من هؤلاء الدمشقة التافهين بمقدمة بالغة من جانبي .
وادرخت النصيب الأكبر والأحسن لكم . انظروا ، إنني أهلكم ما تبقى .
عليكم أن تكونوا أقوى وأن تعرفوا كيف تتعاملون معهم »^(٤٩) . دم سلمهم
قوائم الجرد وبها أسماء الملوك وأصحاب الحوانين وقوائم البخائع
والسلع وأماكنها . (ص ٢٢٥) كما أباح لهم سفك الدماء . فأطاعوه ونزلوا
على رغبته طاعة الأبناء الأوفياء للأب الطيب . ودخلوا دمشق وقد تجردوا
من كل القيم الإنسانية واستدعوا الرجال الذين سلموا إليهم كسباً .
فابتذلوا بالاستيلاء على ممتلكاتهم ، ثم عذبوهم ضرباً بالسياط ووخلوا
بالسلاكين وحرقاً بالنار . إن القصة لا يمكن تصديقها اذا رويت ، وهي
أكثر اثارة للأسى اذا رؤيت ، لأنهم ربوا الرجال الى قطعة من الخشب
كما يربط الخنزير ثم أحاطوهم بالنيران من كل جانب كما يفعل عند سواء
اللحم . ومع تقليل قطعة الخشب يشتد الألم بصورة لا تحتمل . ويعلو
صراخ الضحايا ، وغالباً ما وضعوا قطع الحديد الساخن الى درجة

(٤٨) تتفق كل هذه التفاصيل الخاصة بفرض الفرانك وأيزار الأموال
من أهالي دمشق مع ما ورد في المصادر العربية .

(٤٩) انظر على سبيل المثال : ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٤١-٤٢
٢٤٥ . المقربى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٤٧-٥١ .

(٥٠) يقال أن نامران اذن لجنوده بنهب المدينة في السادس عشر من
مارس وأستمر ثلاثة أيام . ويقول شرف الدين في ج ٢ ص ٣٤٣ « إن الجند
دخلوا دون بصرى ولكن الذي أهلاهم لعمل ذلك هو خطاب العاه نامر لان
وأوقع منه اللوم على السوريين لتأييدهم الأمويين في حربهم ضد على .

(٥١) عن نهب مدينة دمشق انظر : ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص
٤٤-٤٥ ، المقربى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ٥٠-٥١ .

الاحمرار على لحم الضحايا حتى يعلو الدخان وله رائحة اللحم المشوى . وبوسائل التعذيب هذه ضعف الكثير من الرجال فأظهروا ما كان نديهم من مبالغ هائلة تجنبًا لمزيد من التعذيب الذي يفوق التصور .

وبعد أن استخدم رجال تيمور كل الوسائل المشروع منها وغير المشروع لاغتصاب الأموال ونضبتو الموارد ، فإن ذلك الرجل الملعون كما كان يلقب تيمور أمر بنقل كل شباب البلدة الوسيم ونسائها الجميلات وفتياتها الصغيرات والصناع المهرة وكل ما يمكن حمله باعداد كبيرة ، أمر تيمور بنقل كل هؤلاء إلى معسكره خارج المدينة ، ثم أشعل النار في مدينة دمشق بكل مبانيها^(٥٠) . لقد شاء الله حدوث ذلك بسبب آثام وظلم الد마شقة الذي لا يوصف . ولقد خبرت بنفسك كثيراً من ذلك ، وجاءت ريح عاصفة ظلت تهب ثلاثة أيام بسرعة فائقة حتى أن أي سفينة كانت تبحر بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة بصرف النظر عن نوع الشراع الذي تبحر به . وهكذا فانه لأمر محزن أن نقص كيف تحولت مدينة بهذه الصخامة إلى جبل من الرماد^(٥١) . وحتى لو كان شعب دمشق فاسداً

(٥٠) حدث ذلك بناء على أمر تامرلان في ١٧ مارس . أما المؤرخ الفارسي شرف الدين نيزم أن النيران قد اشتعلت في المدينة بمحض الصدفة .

(٥١) تؤيد المصادر العربية اشتعال النار في مدينة دمشق . انظر : ابن نغري بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٥ ، المقريزي : كتاب السلوك ج ٣ ص ٣ من ١٠٥١ ، ابن أبيس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦٦ .

(٥٢) لا يشير دى ميجناتلى إلى آخر الأعمال الشريرة التي ارتكبها جيش تامرلان ، وهو حرق الجامع الأموي . وربما كرجل مسيحي (دى ميجناتلى) لم يكن مهتماً بذلك ، وربما تكون النار التي أشار إليها قد شملت المدينة والمسجد معاً . عن حريق المسجد الأموي انظر :

Clavijo, pp. 173-195 ; Schiltberger, pp. 22-33 ; Memoire, p. 455;

وطبقاً للمؤرخين الفرس فإن تامرلان حاول بالفعل إنقاذ المسجد وأرسل شاه ملك لهذه المهمة . ولكن بالرغم من كل الجهود التي بذلها جنوده فإن المئذنة الشترقة قد تحطم تماماً مع أنها كانت ببنية من الحجر ، في حين إنقت مئذنة المبر بمعجزة مع أنها كانت خشبية . « وشبه ذلك بقضيب أو عصا المسيح » . انظر : شرف الدين ص ٣٤٦ ، نظام الدين ص ٢٣٠ . =

جداً فائني مضطر لأن أحزن على هلاكه . لقد تحققت كلمة النبي أشعيا في الفصل ١٧^(٥٢) الذي كان موضوعه دمشق « انظروا (ص ٢٢٦) ان دمشق ستنتهي كمدينة وتحول إلى كومة من الأحجار » . وأيضاً تحققت كلمات جرميا التي جاءت في منتصف الفصل التاسع والأربعين^(٥٣) . يجب أن نحزن حقيقة على المدينة الجميلة ، ومن غير شك فإن دمشق لم تكن ضخمة جداً فهي تبدو أصغر قليلاً من مدينة بيزانا Pisana ، وهي تقع في سهل ، ولها حضن قوية وضواحي . وكانت كثافة السكان أذ بلغ تعدادهم – فيما يعتقد – عندئذ مائة ألف مواطن^(٥٤) . أما من الداخل فكانت غاية في الجمال وتسر الناظرين ، وببيوتها الرائعة جداً كانت معطاء من قمتها إلى قاعدها بالحجارة المتعددة الألوان ، وفي وسطها نافورة

Shaéraf ad-Din, p. 346 ; Nizam ad-Din, p. 230.

==

وطبقاً لابن عريشاه ج ٢ ص ١٣٢ فإن رأفة خراسان قد أشعلاوا النار في المسجد .

(*) تؤكد المصادر العربية احرق مسجد بنى امية ، انظر ابن سعري بردى ج ١٢ ص ٢٤٦-٢٤٥ حيث يقول « وسقطت سقوف جامع بنى امية من الحريق . وزالت أبوابه ، وتقطعت رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة » . وانظر أيضاً : المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٥١ ، ابن عريشاه : عجائب المدن ، من ١١٧ .

(٥٢) يشير إلى أشعيا فصل ١٧ / آية (١) .

(٥٣) انظر جرميا فصل ١٩ / آيات ٢٣-٢٧ .

(٥٤) تشير تقارير الرحالة الأوروبيين المعاصرین إلى نفس حجم التعداد تقريباً . انظر :

B. de la Brocquiere, Piloti, frescobaldi etc...

وأيضاً الاشارات إلى ذلك في :

Heyd, Levante handel,

(*) انظر رحلات بروكير في :

Thomas Wright, early travels, The travels of B. de la Brocquiere
A D-1432-1433, p. 294.

تقذف بتيار مستمر من الماء المتدفق في اتجاه السماء • وكانت تلك النافورة هي مصدر مياههم للطبخ وغسل كل الأشياء المتعلقة بهذه العمنية • وكانت المدينة تزخر بكثير من النافورات في الأحياء والطرقات • وليس لها ميول تجاه المياه التي من ذلك النوع لأنها ضارة جداً لنا نحن الالatin •

وكان في دمشق رئيس رسمي لكل حرفية تحت الشمس تقريباً ، الذهب والفضة والحديد والقطن والكتان والزجاج والنحاس الأصفر^(٥٥) ، وكانت هذه المناطق الريفية تنتج بصفة عامة من ماء الورد الرائع باتجاه سنوياً يحتاج إلى أربعة آلاف بغل لنقله ، وهو ما يعادل ألف ميكال طبقاً لمكاييل سينا Siena أي ألف أو ألف ومائة بوشل Bushels من نابلي . كما كان ينتج في كل عام في ثمان مطابخ ما مقداره من السكر ثلاثة أو أربعة آلاف جرة . وقد كانت هذه المطابخ ذاتعة الصيت آنذاك في هذه الصناعة . وكانت جرة السكر الدمشقية آنذاك تحتوى على ستمائة رطل بندقى . حقاً أن هناك أشياء خرافية كثيرة يمكن ذكرها عن تلك المدينة وعن أضاحلها الشديد بعد تدميرها وخرابها بصورة تثير الآسى عند سماعها ، كما أنها أكثر إثارة عند رؤيتها . وأنا لا أنوي تسجيل هذه الأشياء ، لكن حسبي أن القول أن أهل دمشق يتتفوقون بكثير عن سواهم في الشرق بأسره في الشر والخبث باستثناء أولئك الذين قدموا من بيت المقدس ، فهم أكثر سوءاً^(٥٦) .

وعندما سأله تيمور أحد الدمشقة الذين وقعوا في الأسر « ماذا تقول عن أنا الذي فعلت مثل هذه الأعمال الكبيرة ؟ » ، أجابه الدمشقى بتعليق :

(٥٥) نسبة اشارة الى نقابات الحرفيين في دمشق ، وبعطاينا دى ميجاناللى وصفها شيئاً للموقف الاقتصادي في ذلك الوقت .

(٥٦) لابد ان دى ميجاناللى شانه في ذلك شأن غالبية المسيحيين المقيمين هناك كانت له نجاحات كبيرة جداً مع السكان المسلمين في دمشق . كما ان دى لابروكير يشير أيضاً إلى معاملة المسيحيين في دمشق في ذلك الوقت .

de la Brocquiere, pp. 293-294.

ومدح زائف : « أمير لا يقارن عظيم في القوة والشجاعة ، ببذل ، عطوف وحنون ، وجدير بكل مدح » (ص ٢٢٧) فأجابه تيمور : « إنك كاذب ، فأنا سوط عذاب اختاره الله لعاقبتكم لأنك لا يوجد هناك من يعرف علاج أثائمكم إلا أنا ، إنك شرير ، وأنا أكثر منك شرا ، لذا عليك بالصمت » (٥٦).

ولا يوجد اتفاق حول الاستعراض العسكري الخصم الذي أقامه تيمور لجيشه ، فقد قيل أنه كان لديه ثمانمائة ألف رجل (٥٨) . ومن المعلومات التي سمعتها في ذلك الوقت ومن مصادر جيدة أمكنني اكتشاف الرقم : في وخاصة الشغالة وقاطعى الأحجار وصانعى الأحذية والمكارين

(٥٧) لا بد أن المقصود بهذا الدمشقي هو ابن خلدون الذي سمع دي ميجنانلى عن لقاءه الشخصى مع ناصرلان . وإن الوصف الوارد هنا خاصةً عبارات التملق تناسب وتنافق مع وصف ابن خلدون نفسه للقاءه مع هذا الفزاري . ويبعدو أن دي ميجنانلى لم يكن على علم بالموضوعات الرئيسية التي دارت حولها مناقشة ابن خلدون مع ناصرلان في أوائل عام ١٤٠١ م في دمشق . وقد قرر ابن خلدون في لقاءه مع ناصرلان الآتي : « لقد اشتقت طلة ثلاثين أو أربعين عالما للقاءك ، وإنك لم يكن هناك على ظهر الأرض منذ أيام حمى هذا العصر حاكم مثلك ». ومن ثم فإن ابن خلدون يعطينا انطباع بأنه بنبع حياة ناصرلان خلال جيل كامل ، وأنه قد حصل على معلومات كثيرة عن حياته ونشاطه.

لزيـد من التفاصـيل انظر :

W. J. fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, pp. 36-37, 81-82.

(*) عن هذا الموضوع انظر أيضاً :

ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وتركتها . نشرها محمد بن تاوبيت الطنجي ص ٣٦٨-٣٧٤ . والتر نتشل : لقاء ابن خلدون لسمورلنك . ترجمة محمد توفيق ص ٧١-٧٧ .

(٥٨) ثمة تقارير متضاربة كثيرة عن جيش ناصرلان في المصادر العربية والأوروبية . ويقول ابن الفرات ج ٢ ص ٣٧٠ أن قوة جيش ناصرلان بلغت مائتين وأربعين ألفاً ، منهم ثلاثة ألف محارب . أما ابن عريشاه ج ١ ص ٦١٦ فإنه يقرر بأن قوة جيش ناصرلان العددية بلغت تمائة ألف .

(*) يفترض ابن خلدون أن جيش تيمورلنك كان أكثر من مليون . انظر : والتر نتشل . لقاء ابن خلدون ص ٨٥ .

والنجارين والبناءين والحرفيين والطهاة والطهانين ، ومن يقومون بأعمال يدوية أخرى ، باحصاء كل هؤلاء أؤكد أن قوام الجيش لم يزد على ثلاثة ألف ، ولم يكن لديه مهاربون بالرماح لأنهم لم يتدرّبوا على استخدامها ، فقد كانوا يستخدمون السيوف والأقواس فقط . وكانوا يحملون دائمًا الترسos الكبيرة بدلاً من دروع المدر والدرع الأخرى الكبيرة . وكان تيمور غالباً ما يقود بنفسه ثلاثة ألفاً من رجاله ، كما كان لديه جيشاً صغيراً الحجم مدرباً على الحياة الشاقة^(٥٩) ، وكل رجاله ودواب حفله كانت تحمل مجهودات شاقة لا تصدق .

كان تيمور في ذلك الوقت كما قال رجاله في الرابعة والسبعين من عمره^(٦٠) ، اثنى لم أره بنفسى كما رفضت أن آراه ، ولكنني اعجب بمنزل ذلك الاحتمال فانني هربت إلى مصر . ولقد كان أعرجاً بدرجة كبيرة حتى أنه كانت لديه قدم مرفوعة عن الأرض لأن رجله هذه كانت مشلولة . ويقال بأن ذلك قد حدث بحدى طرقتين (ص ٢٢٨) لا أميل إلى تأييدهما أو

: انظر (٥٩):

G. Roloff, Asiatische und europäische Kriegsführang, in :
Der Islam, 1940, vol. 26, pp. 110-115 and E. strauss, Toldoth ha-yehu-dim, pp. 14-15.

(٦٠) لما كان من المعتقد بصلة عامة أن ناصر لان ولد في ٨ أبريل ١٢٣٦هـ فلابد أنه كان في حوالي الخامسة والستين من عمره عندما كان في دمشق . وطبقاً للنجوم ج ٦ ص ٢٨١ ، ابن عريشاه ج ٢ ص ٧٨٢ مثل ناصر لان عمر حتى سن التمانين ، وأنه مات في عام ١٤٠٥هـ طبقاً للمصادر العربية .

ثفيهما^(٦١) . لقد قبل انه قد جرح بمقذوف وهو في شبابه فأصيب أحد جانبيه بالعجز . ويقول البعض بأن ذلك قد حدث له عندما أسر وهو يقوم بأعمال قطع الطرق واللصوصية . وأراد أولئك الذين أسروه قتله لمنعه من ارتكاب المزيد من الجرائم ، ولكنه نجا من الموت بسحر كلماته التي برع فيها وأجادها ، ويقسمه ووعده أن يضم حدا العمليات النهب . وكان تيمور رجلا في غاية الوسامنة واللطف ، يتمتع بمظهر رقيق وودود^(٦٢) . ويعارض ذلك رأى أفلاطون في أن الجمال يقترن بالطيبة ، لأن تيمور كان وسيماً ومع ذلك كان شيريرا . وقد زاد شره مع تقدمه في السن .

• (٦١) تقول كل المصادر أن تيمور أصابه العرج بسبب سه (النجوم ج ٦ ص ٧٤) . وطبقاً لـ كلافيجو Clavijo , p. 217 فـ ساقه اليمني عندما كان يقوم بغارة على سستان ، وأنه ظل نـ أعرجاً طيلة حياته . وفضلاً عن فقد أصابه جرح في يده اليـ أصبعين صغيرين . أما لفظ أخرج في التاريسية فهو Lank ومن ثم جاءت كلمة Timurlank . وفيما بعد أصبحت تامران Tamerlane في الاستعمال الأوروبي .

(٦٢) عن المظهر الجسماني لنامران انظر :

ابن عريشاه ج ٢ ص ٧٨٠-٧٨٢ ،

Clavijo, p. 22 ; Memoire, p. 463,

وانظر النجوم ج ٦ ص ٢٨١ حيث قال : « وكان تيمور طوبل القامة ، سخيف الجبهة ، عظيم الهمامة ، شديد القوة ، أبيض اللون مشرباً بمحمر ، عريش الائنان ، غليظ الأصابع مسترسل اللحمة ، أشيل اليد ، أعرج اليمني ، نتوعد عيناه ، جهير الصوت ، لا بهاب الموت ، قد بلغ الثمانين وهو متربع بحواسه وقوته » .

(٦٣) انظر : ابن نفرى بردى : النجوم ج ١٣ « نحقق فهم محمد شلبوت — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠ م » ص ١٦٢ .

ويلاحظ أن ابن اباس أورد صفات جسمية لـ تيمور مخالفة فقال « وفل كان نيمورلنك مع وجود هذه السطوه العظيمة اخرج بوركه اليمنى .. قصير القامة ، غليظ الجسد مسدبر اللحمة . وقد وكزه الشيب . ولم يكن شيبـ إلى فروسيـة ولا شجـاعة ، ولكـه كان كـثيرـ الحـلـ والـخدـاعـ » . انظر : ابن اباس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦١٩ .

- ٤٠ -

وعندما كان تيمور شاباً تزوج سيدة كهله غنية تسمى قمر الدين^(٦٣) ، وظل طوال حكم ابن زوجته المعروف باسم السلطان محمود عادل^(٦٤) وصالحاً ورحيناً وسخيناً بأفراط وموضع ثناءٍ . ولكن عندما نقدم به العمر وذهب إلى ثاناً Thanaً في بلاد القتر سنة ١٣٩٥ م - وكانت آنذاك أقيمت في دمشق ، فإنه أصبح موضع اللعنة العلنية ، وأزادت ظلمه مداهنة .

أنتي لم اعبر عن حزني العميق لتدمير دمشق ، تلك المدينة العظيمة ، دون سبب وجيء ، فقد جئت إليها شاباً فقيراً معدماً ، وووجدت فيها النروءة الوفيرة والشرف العظيم ، لكن ذلك كان يقابلها الكثير من الجهد والمخاطر الجمة التي تعرضت لها من جراء خبث هؤلاء الناس . مع أن ما عانيت منه كان أقل مما عانى منه غيري من المسيحيين . وكثيراً ما عانيت على يديهم ، وفي بعض الأحيان لم يمر هؤلاء دون عقاب ، فكثيراً ما نشرت الخوف في قلوب أولئك الرجال الوقحين . (من ٢٢٩) وطالما أن السلاطين الذين كانوا يحكمون هذه المناطق^(٦٥) معجبي بنا نحن الملاتين فقد ينتهي الأمر

(٦٣) لا تؤيد المصادر ذلك ، انظر :

Encyclopaedia of Islam, S.V. «Timurlang», vol. IV, p. 779.

(٦٤) الاشارة هنا إلى السلطان محمود ابن زوجته . ولم يكن تامرلان فيحقيقة الأمر ملكاً أو حاكماً إذ أن الجالس على العرش «صاحب الخات» كان محمود خان الذي عينه تامرلان سلطاناً في حين قام تارلان بدارارة شئون الحكم . أما اسم والد محمود فهو صرغتمش Suyurghatmish ، وقد يزوج تامرلان باسم محمود بعد وفاة والده . « انظر النجوم ج ٦ ص ٨٤ ، ١٥٨ ». وبعد غزو دمشق امر تامرلان بأن تقام الصلوات في المسجد الأموي حيث يذكر اسم السلطان محمود ولي عهده ، فالخان المعين أو الحاكم كان يذكر اسمه في صلاة الجمعة . (النجوم ج ٦ ص ٦٥) .

(*) انظر النجوم ج ١٢ ص ٢٤٢ .

(٦٥) يشير إلى السلطان المملوكي برقوه ١٣٩٩-١٣٨٢ م وابنه برقج . ١٤١٢-١٣٩٩ م

- ٤١ -

يُضرب من يسيء إلى بالسياط بقصوة على يد المماليك إلى حد نزف الدماء ، وبهذه الطريقة كبحت جماح خبث المواطنين الأشرار إلى درجة كبيرة .

ورأى تيمور أن قبيلته قد أتقتلت بالمتلكات والكتوز ، وعلم أن السلطان التركى بايزيد قد جمع جيشاً كبيراً بهدف الاستيلاء على سوريا ، كما تطلع إلى ذلك من قبل ؛ اذا تقدم تيمور إلى القاهرة حسبما سارت به الشائعات . وعندئذ فكر تيمور وقرر وهو مثقل بالأسلاب والسبايا أن يعود إلى بلاده بصفة مؤقتة^(٦٦) . فاصطحب معه العذارى الصغار الحسناوات والأولاد وسائر رؤساء الحرف الرسميين الذين حفلت دمشق بعدهم كبير منهم ، وترك تلك المدينة في حالة خراب وقد احترق تل من الرماد^(٦٧) . وبقى في أحد أرجاء المدينة عدد قليل من المنازل الصغيرة التي لم تتمتد إليها النيران وهي تخص مسيحيي كنتورا Centura على الجانب الشرقي^(٦٨) . ومن الحقائق المسلم بها أن النار ظلت مشتعلة بضراوة في المدينة بعد رحيل تيمور طيلة تسعة شهور ، ولقد شهدت ذلك

(٦٦) جاء في النجوم ج ٦ من ٨١ أن تامرلان لم يعد حقيقة إلى وطنه ، لكنه أعطى الانطباع بأنه سيفعل ذلك حتى يصرف انتباه أعدائه . وفي نهاية الأمر خدع جبوشه عمداً وسار للمرة الثانية إلى حلب ثم اتجه عن طريق الراها ومardin فجأة إلى بغداد في ٩ يوليه سنة ١٤٠١ م ، وبعد ذلك اتجه إلى آسيا الصغرى حيث أوقع الهزيمة بجيوش العثمانيين بقيادة بايزيد في موقعة انقرة الشهيرة .

(*) انظر النجوم ج ١٢ طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٦٥-٢٦٨ .

(٦٧) هناك اتفاق عام بين كل المصادر على نقل تامرلان الحرفيين من دمشق إلى سمرقند . ومن المعروف أيضاً أن تامرلان أخذ معه إلى سمرقند عمال مهرة وحرفيين من كل نوع من دمشق والمدن الأخرى . وطبقاً لكتاب جو وشرف الدين فإن تامرلان أخذ كل النساء وصناعة الأقواس والحرفيين من صناع الزجاج والبورسلين من دمشق . انظر :

Clavijo, p. 134, 287 ; sharaf ad-Din, III, pp. 340-347 ;
Heyd, Levante handel, pp. 467-468.

(٦٨) لم يمكن الاستدلال على هذا النفي .

بنفسى ، لذا فليتلق كل الناس عدالة الله التهار سبحانه وتعالى . وليخفر
المرء من أن يستمد المجد من ظلمه مهما بلغت قوته ، فقد أراد الله أن ينتقم
منهم بقسوة شديدة لخطاياهم ، فلم يعد لديهم ما يقتاتون به لأن كل شيء
قد امتدت اليه يد التدمير ، وكان عليهم أن يجلبوا المؤن من مسافات
بعيدة . وأرسل الله عليهم من السماء حشودا هائلة من الجراد المفترس ،
وقد حدث ذلك في شهر مارس وأبريل بعد رحيل تيمور الذي غادر
دمشق في مارس^(٦٩) .

ونتيجة لذلك فانهم لم يستطيعوا حصد محاصيلهم في ذلك العام ،
فقد التهم الجراد كل شيء ، ليس فقط براعم النباتات وثمارها بل أيضا
(ص ٢٣٠) سيقانها وأوراقها وجذورها ، وتتصور الدمشقة المساكين
جوعا على نحو يصعب تصديق ، وافتقدوا كل وسائل الاغاثة ، وقد هلك
عدد من الناس من العوز والجوع والبرؤس ، بل ان الهواء قد تلوث
بالروائح الكريهة نتيجة لتفعن الجثث في الشوارع والطرقات حيث لم يوجد
الموتى من يدفهم ، ولم يستطع أحد أن يعيش في أي مكان باستثناء
القلاع التي لم تحرق . وخارت قوای الجسدية والعقائية من روائح
الجثث الكريهة ومن الاختطارات الشديدة ، ولم تستطع أنأكل شيئاً
أو أنام من شدة الخوف . ولم يكن في دمشق على أي حال في الوقت

(٦٩) تختلف الأقوال حول مدة اقامة تامرلان في دمشق ، فيقول البعض
انها ثمانون يوما « النجوم ج ٦ من ٦٨ » أما في Memoire p. 455 فهي
تسعون يوما .

وقد غادر تامرلان دمشق في ١٩ مارس سنة ١٤٠١ م . انظر السنوك
ورقة ٢٧ ب ، ابن عريشة ج ٢ ص ١٣٤ ، النجوم ج ٦ من ٦٧ ، المنهل ورقة
١١٤٩ ، العيني ورقة ٢٤ ب .

(*) انظر النجوم ج ٢ ص ٤٥ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٣
ص ١٠٥١ ، ابن ايساس : بدائع ج ١ ق ٢ ص ٦٦ . وتوارد المصادر العربية
هجوم الجراد على دمشق : انظر النجوم ج ١٢ ص ٢٥٣ ، ابن حجر : انباء
الغمر ج ٢ ص ١٣٨ .

الذى كان تيمور موجوداً هناك ، وعندما جاء تيمور الى دمشق كنت فى مدينة بيت المقدس . ولقد ذهبت الى هناك فى بادئ الأمر من تلقاء نفسي ، وفيما بعد للصلوة من أجل أبي ، ومكثت هناك طوال الشّتاء لترويح عن نفسي ولل العبادة . وعندما جاء تيمور وانكسرت جيوش السلطان ولاذ بالفرار بدأت رحاتى مع خادم واحد وقنصل كانوا الداعو جانونيسى واتخذنا طريقنا الى دمياط ثم القاهرة Janonuense of Cafa عن طريق النيل . ومع فقدان كل ممتلكاتى سواء هناك (فى دمشق) أو فى روما ، فانى اتجهت الى الاسكندرية^(٧٠) . ولقد نويت أن أتجاهل فى ذلك المجلد قصة رحلاتى ، وسوف أعود الى أعمال تيمور . وبعد رحيل تيمور عدت من الاسكندرية الى القاهرة ثم بعد ذلك الى بيت المقدس . ومن هناك اتجهت الى قبرس ، وسافرت فى حزن عظيم حتى وصلت الى دمشق أخيراً لأجدها فى حالة خراب مروع . وسوف أمر هرور الكرام على ما حدث فى تلك الأثناء ثم أعود مرة أخرى الى أعمال تيمور^(٧١) .

(٧٠) بعطينا هذه التفاصيل اضافات عن ترجمة حياة دى ميجناللى الذى سبق الانصار بهانى التدبیر .

(٧١) اضاف دى ميجناللى بعد ذلك وصفا لمعركة تامرلان ضد السلطان العثمانى بابزيد ، ووصف معركة انقرة وغزو سميرنا Smyrna (ازمير ،) وكذلك غزو تامرلان لبغداد . ثم اضاف مقالة عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . أصله وديانه . واختتم دى ميجناللى مقالاته بفصل عن الهود وباريخهم الحق بالمقالة فيما بعد سنة ١٤٤٦ م . وقد استبعدا كل هذه الماده من الدراسة الحالى .

(*) جاء فى تعليق فشنل W. Fischel بعض الالفاظ الغير لائقة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى الالفاظ التى اعتاد الكتاب الغربيون برددها . وقد استبعدا فى الترجمة العربية هذه الالفاظ .

مصادر ومراجع التحقيق

(١) المصادر العربية

- ١ - ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس المصري ت ٩٣٠ هـ
بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الأول القسم الثاني ،
تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتب - القاهرة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م
- ٢ - ابن تغري بردى : جمال الدين أبو المحسن يوسف ت ٨٧٤ هـ /
١٤٧٠ م
- النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة :
ج ١٢ : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
ج ١٣ : تحقيق فهيم محمد شلتوت - الهيئة المصرية العامة
لتأليف ونشر ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م
ج ١٤ : تحقيق د. جمال محمد محزز ، فهيم محمد شلتوت .
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م
- ٣ -
- الدليل الشافعى على المنهل الصافى . ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق فهيم
محمد شلتوت . طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣ م
- ٤ - ابن حجر العسقلانى : أ Ahmad بن علی بن محمد ت ٨٥٢ هـ
أبناء الغمر بابناء العمر . تحقيق د. حسن حبشي . ثلاثة أجزاء .
لجنة احياء التراث الاسلامي . القاهرة ١٩٦٩ م - ١٩٧٦ م

- ٤٦ -

- ٥ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ١٤٠٥ / هـ ٨٠٨ م
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . نشره محمد بن ناويت
الطنجي - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
٢٠ م ١٩٥١
- ٦ - ابن عريشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد .
٦ - كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور . الطبعة الأولى .
مطبعة وادى النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ .
- ٧ - ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الهي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ
شذرات الذهب في أخبار من ذهب . طبع المكتب التجارى للطباعة
والنشر والتوزيع - بيروت لبنان .
- ٨ - ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر بن أحمد . ت ١٤٤٨ / هـ ٨٥١ م
تاريخ ابن قاضى شهبة : ج ٣ تحقيق عدنان درويش ، طبع دمشق
١٩٧٧ م ، مجلد ٤ مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٤٠٢
تاريخ تيمور .
- ٩ - ابن طولون : شمس الدين محمد بن على ت ٩٥٣ هـ
قضاء دمشق « الشغر البسام في ذكر من ولى قضاء الشام » .
تحقيق صلاح المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م .
- ١٠ - الخطيب الجوهري : علي بن داود الصيرفي ت ٩٠٠ هـ
نزهة النفوس والأبدان في تواریخ الزمان . ثلاثة أجزاء ، تحقيق
د . حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م
- ١١ - العینی : بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . مخطوط بدار الكتب بالقاهرة
رقم ح ٨٢٠٣ ، مجلد ٢٦ ، ٢٧ .

- ٤٧ -

١٢ - المقريذى : أحمد بن على ٠ ت ٨٤٥ هـ

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٠

- ج ١ : في ثلاثة أقسام ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة - لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م ٠
- ج ٣ : في ثلاثة أقسام تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ٠
مطبعة دار الكتب بالقاهرة - ١٩٧٠ - ١٩٧١ م ٠

١٣ - والتر فنسنل :

لقاء ابن خلدون لتيمور لنك - ترجمة محمد توفيق وردى -
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ٠

(ب) المصادر الأجنبية

1. De Mignanelli, Ascensus Barcoch, Translated from Latin to English by W. Fischer, in « Arabica Vol. 6, 1959 ».
- II. Gonzalez de Clavijo, Embassy to Tamerlane 1403-1406, Translated from the Spanish by Guy le Strange, London 1928.
- III. E. Piloti, L'Egypte au Commencement du quinzième siècle, Le Caire 1950.
- IV. Thomas Wright, Early Travels, the travels of B. da la Brocquiere.

مطبعة أجبلاوي

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤٣٠١

